إِصْلَاحُ الْقُلُوبِ

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي


بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا؛ وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

إِنَّ المُتَأَمِّلَ فِي نَفسِهِ وَمَنْ حولَهُ مِنَ النَّاسِ بِكَافَّةِ طَبَقَاتِهِم، لَيَرَى اهْتِمَاماً بَالِغاً وَانْصِرَافاً تَامّاً - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ - إِلَى العِنَايَةِ بِالمَظَاهِرِ المَرئِيَّةِ، وَغَفلَةً تَكَادُ تَكُونُ عَامَّةً عَنِ العِنَايَةِ بِالأَعمَالِ القَلبِيَّةِ وَالذَّخَائِرِ الخَفِيَّةِ.

مَعَ أَنَّ إِصْلاحَ القُلُوبِ مِنَ المَطَالِبِ العَالِيَةِ،

وَالمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ، وَأُمنِيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَغَايَةٌ كَرِيمَةٌ لا تَصْلُحُ الأَحْوَالُ إِلَّا بِهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَد صَارَ الكَلامُ فِي إِصْلاح القُلُوبِ عَزِيزاً وَغَرِيباً. «وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَدْعُو إِلَيْهِ، وَيَنْصَحُ بِهِ نَفْسَهُ وَالنَّاسَ»[1] وَإِذَا تَعَرَّضَ طَالِبُ العِلْمِ النَّافِعِ لِشَيءٍ مَنْهَا اسْتُغْرِبَ وَاسْتُبْعِدَ. فَهُوَ «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غُرْبَةً بَينَ النَّاسِ، لَهُم شَأنٌ وَلَهُ شَأنٌ، عِلْمُهُ غَيرُ عُلُومِهِم، وَإِرَادَتُهُ غَيرُ إِرَادَتِهِم، وَطَرِيقُهُ غَيرُ طَرِيقِهِم، فَهُوَ فِي وَادٍ وَهُم فِي وَادٍ»[2] مُنْفَرِدٌ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ. «فَلَزِمَهُ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهِ»[3]. طُوبَى لَهُ مِنْ وَحِيدٍ عَلَى كَثْرَةِ السُّكَّانِ، غَرِيبٍ عَلَى كَثْرَةِ الجِيرَانِ[4]. وَلَقَد أَحْسَنَ القَائِلُ:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ
وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفرَادُ

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٧ ـ ٢١٨).
(٢) فوائد الفوائد (ص٣٤٨).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٤).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٨).

لا يُعرَفُونَ وَلا تُدْرَى مَقَاصِدُهُم
فَهُم عَلَى مَهلٍ يَمشُونَ قُصَّادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِم
فَجُلُّهُم عَن سَبِيلِ الحَقِّ رُقَّادُ

وَعَلَى الجُمْلِةِ: فَلا يَمِيلُ أَكثَرُ الخَلْقِ إِلَّا إِلى الأَسْهَلِ وَالأَوفَقِ لِطِبَاعِهِم.

«وَكُلَّمَا كَانَ الفِعْلُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَأَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى، كَانَ اعْتِرَاضُ الشَّيْطَانِ لَهُ أَكْثَرَ»[1].

وَكُلَّما عَظُمَ المَطْلُوبُ وَشَرُفَ «كَثُرَتِ العَوَارِضُ وَالموَانِعُ دُونَهُ، هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي الخَلْقِ.

فَانْظُرْ إِلى الجَنَّةِ وَعِظَمِهَا، وَإِلَى المَوَانِعِ وَالقَوَاطِعِ التي حَالَتْ دُونَهَا، حَتَّى أَوجَبَتْ أَنْ ذَهَبَ مِنْ كُلِّ أَلْفِ رَجُلٍ وَاحِدٌ إِلَيهَا.

وَانْظُرْ إِلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَالانْقِطَاعِ إِلَيهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ وَالتَّبَتُّلِ إِلَيهِ وَحْدَهُ، وَالأُنْسِ بِهِ وَاتِّخَاذِهِ وَلِيّاً وَوَكِيلاً

---

(1) موارد الأمان (ص١٦٢).

وَكَافِياً وَحَسِيباً، هَلْ يَكْتَسِبُ العَبْدُ شَيئاً أَشْرَفَ مِنْهُ؟»[1].

وَانْظُرْ إِلَى العَوَائِقِ الحَائِلَةِ دُونَهُ، مِنْ شِرْكٍ، وَبِدْعَةٍ، وَمَعصِيَةٍ؛ فَإِنَّها تَعُوقُ القَلبَ عَنْ سَيرِهِ إِلَى اللهِ، وَتَقْطَعُ عَلَيهِ طَرِيقَهُ، فَالعَوَائِقُ شَدِيدَةٌ، «لا يَخْلُصُ مِنْ حَبَائِلِهَا إِلَّا الوَاحِدُ بَعْدَ الوَاحِدِ، وَلَولا العَوَائِقُ وَالآفَاتُ لَكَانَتِ الطَّرِيقُ مَعْمُورَةً بِالسَّالِكِينَ، وَلَو شَاءَ اللهُ لأَزَالَهَا وَذَهَبَ بِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ»[2].

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ فِي غَفْلَةٍ عَنْ قُلُوبِهِم، جَمَعْتُ هَذَا البَحْثَ بِتَوفِيقِ اللهِ تَعَالَى، سَائِلاً المَولَى الكَرِيمَ أَنْ يُصْلِحَ بَوَاطِنَنَا وَظَوَاهِرَنَا، وَيُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

الراجي رضى الرحمن
عبد الهادي بن حسن وهبي[3]

---

(١) طريق الهجرتين (ص٤٣٩). (٢) طريق الهجرتين (ص٣٣٦).

(٣) بيروت ـ لبنان. ص.ب ١٣/٦٠٩٣ شوران
هاتف ٠٣/٦٢٦٧٨٧ ـ فاكس ٠١/٧٩١٠٥١
موقع الإنترنت: www.asseraj.com.
البريد الإلكتروني: Asseraj@ asseraj. net.



الأَصْلُ الأَوَّلُ:

القَلَبُ مَوْضِعُ نَظَرِ اللهِ تَعَالَى

عَـنْ أَبـي هُـرَيـرَةَ رضي الله عنه قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١).

أَشْرَفُ مَا فِي الإِنسَانِ قَلْبُهُ، فَهُوَ مَحِلُّ نَظَرِ اللهِ سبحانه وتعالى، المَخْصُوصُ بِأَشْرَفِ العَطَايَا مِنَ الإِيمَانِ وَتَوَابِعِهِ. فَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَهْتَمَّ بِقَلبِهِ وَيُزَيِّنَهُ بِالتَّوبَةِ وَالإِنَابَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَيُطَهِّرَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ تَعَالَى، فَإِنَّ زِينَةَ الظَّاهِرِ مَعَ خَرَابِ البَاطِنِ لا تُغْنِي شَيئاً. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَابَنِيٓ ءَادَمَ

(١) رواه مسلم [٣٤ ـ (٢٥٦٤)].

قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ لِبَاسَيْنِ: لِبَاساً ظَاهِراً يُوارِي العَوْرَةَ وَيَسْتُرُهَا، وَلِبَاساً بَاطِناً مِنَ التَّقْوَى، يُجَمِّلُ العَبْدَ وَيَسْتُرُهُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُ هَذَا اللِّبَاسُ؛ انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ البَاطِنَةُ، كَمَا تَنْكَشِفُ عَوْرَتُهُ الظَّاهِرَةُ بِنَزْعِ مَا يَسْتُرُهَا(١).

وَلَقَد أَحْسَنَ القَائِلُ:

إِذَا الـمَرْءُ لَـمْ يَلْبَسْ ثِيَاباً مِنَ التُّقَى
تَـقَـلَّـبَ عُـرْيَـانـاً وَإِنْ كَـانَ كَـاسِـيـاً
وَخَـيـرُ لِـبَـاسِ الـمَـرءِ طَـاعَـةُ رَبِّـهِ
وَلا خَـيـرَ فِـيـمَـنْ كَـانَ لـلـهِ عَـاصِـياً

وَهَكَذَا إِذَا رُئِيَ الرَّجُلُ أَوِ المَرْأَةُ فِي مَنَامِهِ مَكْشُوفَ السَّوْأَةِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادٍ فِي دِينِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّـي كَـأَنِّـي أَرَى مَـنْ لَا حَـيَـاءَ لَـهُ
وَلَا أَمَـانَـةَ وَسْـطَ الـنَّـاسِ عُـرْيَـانـاً(٢)

---

(١) موارد الأمان (ص١٨٣). (٢) موارد الأمان (ص١٨٣).

فَاللهَ اللهَ فِي إِصْلاحِ السَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَا يَنْفَعُ مَعَ فَسَادِهَا صَلاحُ ظَاهِرٌ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٥١].

فَانْظُر أَيُّهَا الأَخُ الحَبِيبُ: مَاذَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ؟!

الأَصْلُ الثَّانِي:

صَلاحُ الجَوَارِحِ بِصَلاحِ القَلبِ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «... **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَتقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيئاً، يَا عِبَادِي لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئاً**»[١].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَصْلَ فِي التَّقْوَى وَالفُجُورِ هِيَ القُلُوبُ، فَإِذَا بَرَّ القَلْبُ واتَّقَى بَرَّتِ الجَوَارِحُ، وَإِذَا فَجَرَ القَلْبُ فَجَرَتِ الجَوَارِحُ[1].

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2].

فَإِنْ كَانَ القَلْبُ صَالِحاً لَيْسَ فِيهِ إِلَّا إِرَادَةُ اللهِ وَإِرَادَةُ مَا يُرِيدُهُ، لَمْ تَنْبَعِثِ الجَوَارِحُ إِلَّا فِيمَا يُرِيدُهُ اللهُ، فَسَارَعَتْ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ، وَكَفَّتْ عَمَّا يَكْرَهُهُ. فَصَلُحَ اللِّسَانُ صِدْقاً وَقَوْلاً سَدِيداً ثَابِتاً وَحِكْمَةً نَافِعَةً، وَصَلُحَتِ العَيْنُ اعْتِبَاراً وَغَضّاً عَنِ المَحَارِمِ. وَصَلُحَتِ الأُذُنُ اسْتِمَاعاً لِلنَّصِيحَةِ وَالقَوْلِ النَّافِعِ، وَمَا يَنْفَعُ العَبْدَ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. وَصَلُحَ الفَرْجُ عِفَّةً وحِفْظاً.

وَعَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا**

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٢١٦).

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[1].

فَأَصْلُ الاسْتِقَامَةِ: اسْتِقَامَةُ القَلْبِ عَلَى التَّوْحِيدِ. فَمَتَى اسْتَقَامَ القَلْبُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ، وَعَلَى خَشْيَتِهِ، وَإِجْلَالِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ، وَرَجَائِهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ، اسْتَقَامَتِ الجَوَارِحُ كُلُّهَا[2].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»**[3].

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ حُبُّهُ للهِ، وَبُغْضُهُ للهِ، وَهُمَا عَمَلُ قَلبِهِ. وَعَطَاؤُهُ للهِ، وَمَنْعُهُ للهِ، وَهُمَا عَمَلُ بَدَنِهِ، دَلَّ عَلَى كَمَالِ

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩٨)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٥٤).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١١ ـ ٥١٢).
(٣) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٤١).

الإِيمَانِ بَاطِناً وَظَاهِراً[1].

فَالحُبُّ فِي اللهِ: أَنْ يُحِبَّ اللهَ، ويُحبَّ مَا يُحِبُّهُ.

وَالبُغْضُ فِي اللهِ: أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ: مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ؛ وَيُبْغِض مَنْ يَتَّصِفُ بِهَا، أَوْ يَدْعُو إِلَيْهَا[2].

وَمَنْ كَانَ حُبُّهُ وَبُغْضُهُ وَعَطاؤُهُ وَمَنْعُهُ لِهوَى نَفْسِهِ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصاً فِي إِيمَانِهِ الوَاجِبِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَلِكَ[3].

إِنَّ مُضْغَةً مَرْهُونٌ صَلاحُكَ بِصَلاحِهَا، وَفَسَادُكَ بِفَسَادِهَا، لَحَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَتَفَقَّدَهَا، وَتَسْعَى إِلَى إِصْلاحِهَا.

الأَصْلُ الثَّالِثُ:

القَلْبُ كَثِيرُ التَّقَلُّبِ

عَنِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ﷺ قَالَ: لَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ خَيْراً وَلَاشَرّاً، حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُخْتَمُ لَهُ ـ يَعْنِي: بَعْدَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٤).

(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ١٠٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٨).

شَيءٍ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ - قِيلَ: وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَاباً مِنَ القِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْياً**»[1].

وَمَعْلُومٌ سُرعَةُ حَرَكَةِ القِدْرِ.

وَهَذَا «مِنْ أَحْسَنِ الأَمثَالِ وَأَبْلَغِهَا، وَأَعْظَمِهَا تَقْرِيباً إِلى الأفْهَام»[2].

وَقَالَ القَائِلُ:

مَا سُمِّيَ القَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ
فَاحْذَر عَلَى القَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا القَلْبَ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، يُقِيمُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطنٍ**»[3].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤)، وصححه الألباني بطرقه فِي «الصحيحة» (١٧٧٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٩٥).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤١٩)، وابن ماجه (٨٨)، وصححه الألباني فِي «صحيح سنن ابن ماجه» (٧١).

فَهُنَا يُصَوِّرُ لَنَا الرَّسُولُ ﷺ القَلْبَ وَكَأَنَّهُ رِيشَةٌ لِخِفَّتِهِ وَلِتَأْثِيرِ الفِتَنِ عَلَيْهِ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، تَمَاماً مِثْلَ الرِّيشَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِيهَا أَقَلُّ النَّسَمَاتِ فَتُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا.

«فَأَدْنَى شَيءٍ يَخْدِشُهُ وَيُدَنِّسُهُ وَيُؤَثِّرُ فِيهِ، فَهُوَ كَأَبيَضِ ثَوْبٍ يَكُونُ؛ يُؤَثِّرُ فِيهِ أَدْنَى أَثَرٍ، وَكَالمِرْآةِ الصَّافِيَةِ جِدّاً؛ أَدْنَى شَيءٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا، وَلِهَذَا تُشَوِّشُهُ اللَّحظَةُ وَاللَّفْظَةُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ»[1].

الأَصْلُ الرَّابِعُ:

القَلْبُ عُرْضَةٌ لِلفِتَنِ

عَنْ حُذَيفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَت فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَت فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادّاً كَالْكُوزِ مُجَخِّياً لا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ**

(١) فوائد الفوائد (ص٤٢).

مُنْكَراً؛ إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»[1].

فَشَبَّهَ عَرْضَ الفِتَنِ عَلَى القُلُوبِ شَيْئاً فَشَيْئاً؛ كَعَرْضِ عِيدَانِ الحَصِيرِ شَيْئاً فَشَيْئاً. «وَتُنْسَجُ فِيهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، كَالحَصِيرِ الذي يُنْسَجُ عُوداً عُوداً»[2].

وَقَسَّمَ القُلُوبَ عِنْدَ عَرْضِهَا عَلَيهَا إِلَى قِسْمَينِ:

أ ـ قَلْبٌ إذا عُرِضَتْ عَلَيهِ فِتْنَةٌ أُشْرِبَها؛ كَمَا يُشْرَبُ السِّفَنْجُ المَاءَ، فَتُنْكَتُ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ.

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا مَا القَلْبُ أُشْرِبَ حُبَّ شَيءٍ
فَلَا تَأْمَلْ لَهُ عَنْهُ انْصِرَافَا

فَلَا يَزَالُ يُشْرَبُ كُلَّ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَيَنْتَكِسَ، وَهُوَ مَعْنَى قَولِهِ: «**كَالكُوزِ مُجَخِّياً**»؛

(١) رواه مسلم (١٤٤).

(٢) كتاب الميسر في شرح مصابيح السنة (٤/ ١١٣٧).

أَي: كَالإِنَاءِ مَكْبُوباً مَنْكُوساً، الذي لا يَثْبُتُ فِيهِ شَيءٌ؛ فَإِذَا اسوَدَّ وَانْتَكَسَ عَرَضَ لَهُ مِنْ هَاتَيْنِ الآفَتَينِ مَرَضَانِ خَطِيرَانِ مُتَرَامِيانِ بِهِ إِلَى الهَلَاكِ.

أَحَدُهُما: اشْتِبَاهُ المَعْرُوفِ عَلَيْهِ بِالمُنكَرِ، فَلَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً، وَرُبَّمَا استَحْكَمَ عَلَيْهِ هَذَا المَرَضُ حَتَّى يَعْتَقِدَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً، والمُنْكَرَ مَعْرُوفاً، وَالسُّنَّةَ بِدْعَةً والبِدْعَةَ سُنَّةً، والحَقَّ بَاطِلاً وَالبَاطِلَ حَقّاً.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: **هَلَكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُهُ المَعْرُوفَ، وَيُنْكِرْ قَلْبُهُ المُنْكَرَ**[1].

فَهُوَ مَيِّتُ القَلْبِ، الَّذِي قِيلَ فِيهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاستَرَاحَ بِمَيِّتٍ
إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[2]

وَهُوَ قَلْبُ المُنَافِقِ، وَهُوَ شَرُّ قُلُوبِ الخَلْقِ. وَهَذَا القَلْبُ دَأْبُهُ دَائِماً أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى مَا يَكرَهُهُ اللهُ

---

(١) رواه الطبراني فِي «الكبير» (٨٥٦٤) بسند صحيح.
(٢) تهذيب المدارج (ص٩٤٦).

وَرَسُولُهُ، وَيَنْهَاهُم عَمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادِ[1].

الثَّانِي: تَحْكِيمُهُ هَوَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَانْقِيادُهُ لِلْهَوَى وَاتِّبَاعُهُ لَهُ.

ب ـ وَقَلْبٌ أَبْيَضُ عَرَفَ الحَقَّ، وَقَبِلَهُ وَأَحَبَّهُ، وَآثَرَهُ عَلَى غَيرِهِ. قَدْ أَشْرَقَ فِيهِ نُورُ الإِيمَانِ، وَأَزْهَرَ فِيهِ مِصْبَاحُهُ، فَإِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الفِتْنَةُ أَنْكَرَهَا وَرَدَّهَا، فَازْدَادَ نُورُهُ وَإِشْرَاقُهُ وَقُوَّتُهُ.

وَالفِتَنُ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَى القُلُوبِ هِيَ أَسْبَابُ مَرَضِهَا، وَهِيَ فِتَنُ الشَّهَوَاتِ وَفِتَنُ الشُّبُهَاتِ، فِتَنُ المَعَاصِي وَالبِدَعِ. هَذَانِ أَصْلُ دَاءِ الخَلْقِ إِلَّا مَنْ عَافَاهُ اللهُ[2].

فَفِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ: إِمَّا بِاعْتِقَادِ خِلَافِ الحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ: كَالَّذِي يَنْفِي

---

(١) الكلام على مسألةِ السماع (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٦٧).

عُلُوَّ اللهِ عَلَى العَرْشِ[(١)]. وَإِمَّا بِالتَّعَبُّدِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ: وَهِيَ البِدَعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا.

وَأَمَّا فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ: «أَنْ يُحِبَّ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةَ، مِثْلَ: الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَالغِيبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أَي: مَرَضُ الشَّهْوَةِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى»[(٢)].

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُم: شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُم وَفُرُوجِكُم، وَمُضِلَّاتِ الهَوَى**»[(٣)].

فَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ: هُوَ دَاءُ العُصَاةِ.

---

(١) فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطِّلٌ، ومن شبَّهَهُ باستواءِ المخلوق على المخلوق فهو ممثِّلٌ، ومن قال: استواءٌ ليس كمثله شيء، فهو الموحِّدُ المنزِّهُ.

(٢) دروس من القرآن الكريم (ص٨٧)، للعلامة الفوزان.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢).

وَاتِّبَاعُ الشُّبُهَاتِ: وَهُوَ دَاءُ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الأَهْوَاءِ وَالْخُصُومَاتِ، وَكَثِيراً مَا يَجْتَمِعَانِ، فَقَلَّ مَنْ تَجِدُهُ فَاسِدَ الاعْتِقَادِ إِلَّا وَفَسَادُ اعْتِقَادِهِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ(١).

وَهَذَانِ هُمَا أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ وَبَلاءٍ، وَبِهِمَا كُذِّبَتِ الرُّسُلُ، وَعُصِيَ الرَّبُّ وَدُخِلَتِ النَّارُ، وَحَلَّتِ الْعُقُوبَةُ(٢).

الأَصْلُ الْخَامِسُ:

الأَعْمَالُ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ

إِنَّ الأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، مِنَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِداً، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٤).

مُقْبِلٌ بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ عزّ وجلّ، وَالآخَرَ سَاهٍ غَافِلٌ.

عَنْ عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكعَتَينِ مُقبِلٌ عَلَيهِمَا بِقَلبِهِ وَوَجهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»**[1].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (بَعْدَ ذِكْرِ فَضْلِ الوضُوءِ وَثَوَابِهِ): **«فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قلبَهُ للهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**[2].

وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ سُورَةٍ بِتَدَبُّرٍ وَمَعرِفَةٍ وَتَفَهُّمٍ، وَجَمعِ القَلْبِ عَلَيْهَا، أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى[3]، وَأَعْظَمُ أَجْراً، «وَخيرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بِغَيرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ، وأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الإِيمَانِ وَذَوقِ حَلاوَةِ القُرآنِ»[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).
(٢) رواه مسلم (٨٣٢).
(٣) المنار المنيف (ص١١).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

وَلا رَيبَ أَنَّ مُجَرَّدَ القِيَامِ بِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ، مِنْ غَيرِ حُضُورٍ وَلا مُرَاقَبَةٍ، وَلا إِقْبَالٍ عَلَى اللهِ: قَلِيلُ المَنْفَعَةِ، دُنْياً وَأُخْرى، كَثِيرُ المُؤنَةِ. فَإِنَّهُ ـ وَإِنْ كَثُرَ ـ مُتْعِبٌ غَيرُ مُفِيدٍ(١).

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وَقَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالمَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا لِيَبْلُوَ عِبَادَهُ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً، لَا أَكْثَرُ عَمَلاً.

وَلِهَذِهِ المَعَانِي الجَلِيلَةِ، لَمْ تُغْنِ الصَّالِحِينَ كَثْرَةُ الأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا: الشَّأنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الكَثْرَةِ.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص٢٤١).

وَأَمَّا الَّذِينَ أَغْفَلُوا مَا فِي القُلُوبِ، فَغَرَّهُمُ العَدَدُ وَالكَثْرَةُ، وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّقُوفِ وَلَمْ تُحْكَمْ مَبَانِيهَا؟!

الأَصْلُ السَّادِسُ:

عُبُودِيَّةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الجَوَارِحِ

القَلْبُ أَشْرَفُ مِنَ الجَوَارِحِ، فَكَانَ عَمَلُهُ أَشْرَفَ مِنْ عَمَلِ الجَوَارِحِ[1].

وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّرِيعَةَ فِي مَصَادِرِهَا وَمَوَارِدِهَا، عَلِمَ ارتِبَاطَ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ بِأَعْمَالِ القُلُوبِ، وَأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ بِدُونِهَا، وَأَنَّ أَعْمَالَ القُلُوبِ أَفْرَضُ عَلَى العَبْدِ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وَهَلْ يُمَيَّزُ المُؤْمِنُ عَنِ المُنَافِقِ[2] إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي مَيَّزَتْ بَيْنَهُمَا،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٤٠).

(٢) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفتاوى» (١٠/ ٧٥٩): المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم فِي الدرك الأسفل من النار عَلَى ما فِي قلوبهم من الأمراض.

وَهَلْ يُمْكِنُ أَحَدٌ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ إِلَّا بِعَمَلِ قَلْبِهِ قَبْلَ جَوَارِحِهِ، وَعُبُودِيَّةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الجَوَارِحِ وَأَكْبَرُ وَأَدْوَمُ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ، «مِثْلَ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَالشُّكْرِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَى حُكْمِهِ وَالخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ»[1]. وَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ وَاجِبَ القَلْبِ عَلَى الدَّوَامِ، وَالإِسْلَامُ وَاجِبَ الجَوَارِحِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، فَمُرَكَّبُ الإِيمَانِ القَلْبُ، وَمُرَكَّبُ الإِسْلَامِ الجَوَارِحُ[2].

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ**» قَالَ: ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: «**التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا**»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٨).
(٣) رواه أحمد (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، وجَوَّدَهُ الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٩١). وقال المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٤): «وصحح».

الأَصْلُ السَّابِعُ:

القَلْبُ هَدَفٌ للشيطان

لَمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَنَّ المَدَارَ عَلَى القَلْبِ وَالاعْتِمَادَ عَلَيهِ؛ أَجْلَبَ عَلَيهِ بِالوَسَاوِسِ، وَأَقْبَلَ بِوُجُوهِ الشَّهَوَاتِ إِلَيهِ، وَزَيَّنَ لَهُ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأَعْمَالِ مَا يَصُدُّهُ بِهِ عَنِ الطَّرِيقِ، وَأَمَدَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الغَيِّ بِمَا يَقْطَعُهُ عَنْ أَسْبَابِ التَّوفِيقِ، وَنَصَبَ لَهُ مِنَ المَصَايِدِ وَالحَبَائِلِ مَا إِنْ سَلِمَ مِنَ الوُقُوعِ فِيهَا، لَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِهِ التَّعْوِيقُ[1].

وَلَمَّا كَانَ الأمرُ بِهَذِهِ الخُطُورةِ: «كَانَ الاهْتِمَامُ بِتَصْحِيحِهِ وَتَسْدِيدِهِ أَولَى مَا اعْتَمَدَ السَّالِكُونَ، وَالنَّظَرُ فِي أَمْرَاضِهِ وَعِلاجِهَا أَهَمَّ مَا تَنَسَّكَ بِهِ النَّاسِكُونَ»[2].

الأَصْلُ الثَّامِنُ:

أَمْرَاضُ القُلُوبِ خَفِيَّةٌ

وَمَرَضُ القَلْبِ خَفِيٌّ، قَدْ لَا يَعْرِفُهُ صَاحِبُهُ ـ كَالرِّيَاءِ وَالعُجْبِ وَالكِبْرِ وَالشُّهْرَةِ ـ فَلِذَلِكَ يَغْفُلُ عَنْهُ، وَإِنْ عَرَفَهُ

---

(١) موارد الأمان (ص٣١).
(٢) موارد الأمان (ص٣١).

صَعُبَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَلَى مَرَارَةِ دَوَائِهِ، لِأَنَّ دَوَاءَهُ مُخَالَفَةُ الهَوَى، وَإِنْ وَجَدَ الصَّبْرَ لَمْ يَجِدْ طَبِيباً حَاذِقاً يُعَالِجُهُ، فَإِنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَطِبَّاءُ القُلُوبِ، العَالِمُونَ بِأَحْوَالِهَا وَأَعْمَالِهَا، العَارِفُونَ بِأَدْوِيَتِهَا وَأَدْوَائِهَا، دَونَ المُنْحَرِفِينَ عَنْ طَرِيقَتِهِم، المُتَشَبِّعُونَ بِمَا لَمْ يُعْطَوْا، لَابِسُو ثِيَابِ الزُّورِ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِم، وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً، وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً. حَتَّى عَادَوْا أَهْلَ الحَدِيثِ، وَرَمَوْهُم بِالعَظَائِمِ، وَنَفَّرُوا النَّاسَ عَنْهُمْ، فَدَاوَوْا أَمْرَاضَ القُلُوبِ بِالآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ وَالخَيَالَاتِ، وَالأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالمَوْضُوعَةِ «فَكَانُوا كَالمُدَاوِي مِنَ السَّقَمِ بِالسُّمِّ القَاتِلِ.

فَاتَّفَقَ قِلَّةُ الأَطِبَّاءِ، وَكَثْرَةُ المَرْضَى، وَحُدُوثُ أَمْرَاضٍ مُزْمِنَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي السَّلَفِ، فَاشْتَدَّ البَلَاءُ، وَتَفَاقَمَ الأَمْرُ، وَامْتَلَأَتِ الدُّورُ وَالطُّرُقَاتُ وَالأَسْوَاقُ مِنَ المَرْضَى، **وَقَامَ كُلُّ جَهُولٍ يُطَبِّبُ النَّاسَ**»[1]. يَنْطَبِقُ عَلِيهِ قَولُ القَائِلِ:

---

(١) موارد الأمان (ص٣٢٠).

وَغَيرُ تَقِيٍّ يَأمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى
طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ سَقِيمُ[1]

وَمَنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الحَدِيثِ، وَبِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ البِدَعِ اليَوْمَ فِي هَذَا البَابِ وَغَيْرِهِ؛ عَلِمَ أَنَّ بَيْنَ السَّلَفِ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الخُلُوفِ مِنَ البُعْدِ، أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، وَأَنَّهُم عَلَى شَيءٍ، وَالسَّلَفُ عَلَى شَيءٍ؛ كَمَا قِيلَ:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّباً
شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

وَالأَمْر ـ واللهِ ـ أَعْظَمُ مِمَّا ذَكَرْنَا[2].

الأَصْلُ التَّاسِعُ:

إِهْمَالُ أَعْمَالِ القُلُوبِ يُؤَدِّي إِلَى الهَلَاكِ

إِنَّ الاعْتِنَاءَ بِالمَظَاهِرِ وَجَعْلَهَا زَاهِيَةً، وَإِهْمَالَ البَوَاطِنِ وَجَعْلَهَا خَاوِيَةً، يُؤَدِّي إِلَى دُخُولِ النَّارِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى.

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٣).
(٢) موارد الأمان (ص٣٧١).

وَلِيَتَأَمَّلِ القَارِئُ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

➢ أ ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَوَّلُ شَيءٍ يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ، حَتَّى لَا تَرَى فِيهَا خَاشِعاً**»[1].

وَأَصْلُ الخُشُوعِ: هُوَ لِينُ القَلْبِ وَرِقَّتُهُ وَسُكُونُهُ وَخُضُوعُهُ وانكِسَارُهُ، فَإِذَا خَشَعَ القَلْبُ تَبِعَهُ خُشُوعُ جَمِيعِ الجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ؛ لأَنَّهَا تَابِعَةٌ لَهُ[2].

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى عَدَمِ الخُشُوعِ أَمْرَانِ:

الأَوَّلُ: عَدَمُ الانتِهَاءِ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ. فَإِنَّ الصَلَاةَ الخَاشِعَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الثَّانِي: عَدَمُ الفَلَاحِ يَوْمَ القِيامَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى

---

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٥٦٩).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص٤٣٩).

عَلَّقَ الفَلَاحَ يَوْمَ القِيامَةِ بِالخُشُوعِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

➢ ب ـ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، بِيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عزّ وجلّ هَبَاءً مَنْثُوراً»**. قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُم لَنَا، جَلِّهِم لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُم وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: **«أَمَا إِنَّهُم إِخْوَانُكُم وَمِنْ جِلْدَتِكُم، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُم أَقْوَامٌ، إِذَا خَلَوا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»**[1].

فَهَؤُلَاءِ قَامُوا بِأَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ، وَأَهْمَلُوا أَعْمَالَ القُلُوبِ، فَلَمْ يُرَاقِبُوا اللهَ فِي خَلَوَاتِهِم، وَالمُرَاقَبَةُ: عِلْمُ القَلْبِ بِقُرْبِ الرَّبِّ.

هَؤُلَاءِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِم قَوْلُ القَائِلِ:

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني فِي «الصحيحة» (٥٠٥).

أَظْـهَـرَ بَـيْـنَ الـخَـلْـقِ إِحْـسَـانَـهُ

وَخَـالَـفَ الـرَّحْـمَـنَ لَـمَّـا خَـلَا

هَؤلاءِ يَجْعَلُ اللهُ أَعْمَالَهُم يومَ القِيامَةِ هَباءً مَنْثُوراً، «لا يَنْتَفِعُ مَنْهَا صَاحِبُهَا بِشَيءٍ أَصْلاً؛ وَهَذا مِنْ أَعْظَم الحَسَرَاتِ عَلَى العَبْدِ يومَ القِيَامَةِ أَنْ يَرَى سَعْيَهُ كُلَّهُ ضَائِعاً لَمْ يَنْتَفِعْ مِنْهُ بِشيءٍ، وَهُوَ أَحْوجُ مَا كَانَ العَامِلُ إِلى عَمَلِهِ، وَقَدْ سَعِدَ أَهلُ السَّعيِ النَّافِعِ بِسَعْيِهِم»[١].

➢ ج ـ عَـنْ أَبـي هُـرَيـرَةَ رضي الله عنه قَـالَ: سَـمِـعْـتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ**

(١) الرسالة التبوكية (ص٥٩).

وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

فَإِنَّ هَؤلاءِ الثَلاثَةَ الذينَ يُرِيدُونَ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ، هُم بِإِزَاءِ الثَّلاثَةِ الذينَ بَعدَ النَّبِيِّينَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ.

فَإِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَعَلَّمَهُ لِوَجْهِ اللهِ، كَانَ صِدِّيقاً، وَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَقُتِلَ كَانَ شَهِيداً، وَمنْ تَصَدَّقَ يَبْتَغي بِذَلِكَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

وَجْهَ اللهِ كَانَ صَالِحاً[1].

د ـ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[2].

وَقَوْلُهُ: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَاطِنَ الأَمْرِ يَكُونُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ خَاتِمَةَ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، فَتِلْكَ الخَصْلَةُ الخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الخَاتِمَةِ عِنْدَ المَوْتِ[3]. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غِشٌّ وَآفَةٌ، لَمْ يَقْلِبِ اللهُ إِيمَانَهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُم مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ: يَخَافُونَ عَلَى أُنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ، وَيَشْتَدُّ قَلَقُهُم وَجَزَعُهُم مِنْهُ.

---

(١) شرح حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» (ص٤٧).
(٢) رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢). وفيه قصة.
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

«وَأَسَاسُ النِّفَاقِ وَأَصْلُهُ: هُوَ التَّزَيُّنُ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي البَاطِنِ مِنَ الإِيمَانِ»[1].

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَينَا؟ قَالَ: «**نَعَم، إِنَّ الْقُلُوبَ بَينَ أُصْبُعَينِ مِنْ أَصَابعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيفَ يَشَاءُ**»[2].

وَقَالَ ابنُ أَبي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُم أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ على إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ[3].

وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: كَانَ يُقَالُ: النِّفَاقُ اخْتِلافُ السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، وَالقَولِ وَالعَمَلِ[4].

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٤٤).

(٣) رواه البخاري معلقاً مجزوماً به: قبل الحديث (٤٨)، ووصله البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٣٧).

(٤) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٥٠)، وصحح إسناده المحقق.

وَعَنْ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبي الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ بِحِمْصَ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في مَسْجِدِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ يَتَشَهَّدُ فَجَعَلَ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ عزّ وجلّ مِنَ النِّفَاقِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟! مَا شَأْنُكَ وَمَا شَأْنُ النِّفَاقِ؟! فَقَالَ: اللَّهُمَّ غُفْراً ـ ثلاثاً ـ لا يَأْمَنُ البَلاءَ مَنْ يَأْمَنُ البَلاءَ، وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَنُ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِينِهِ[1].

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ قَالَ: أَنْ لا يَكُونَ فِيَّ نِفَاقٌ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. كَانَ عُمَرُ يَخْشَاهُ وَآمَنُهُ أَنَا؟[2].

وَقَالَ بِلالُ بنُ سَعدٍ: لا تَكُنْ وَلِيّاً للهِ عزّ وجلّ في العَلانِيَةِ، وَعَدُوَّهُ في السِّرِّ[3].

---

(١) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.

(٢) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٨٦)، وصحح إسناده المحقق.

(٣) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٩١)، وصحح إسناده المحقق.

وَلِأَجْلِ هَذَا: خَافَ عِبَادُ اللهِ تَعَالَى الصَّالِحُونَ عَلَى قُلُوبِهِم، وَبَكَوا عَلَيْهَا وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُم إِلَيْهَا.

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم مِنَ الْمُعْتَبِرِينَ بِالعِبَرِ، الْمُهْتَمِّينَ بِمَواضِعِ الخَطَرِ، الْمُوَفَّقِينَ لِإِصْلَاحِهَا بِحُسْنِ النَّظَرِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.





عَلَامَاتُ القَلْبِ السَّلِيمِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

العَلَامَةُ الأُولَى: أَنْ يَكُونَ سَالِماً مِنْ مَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ سَلَامَتُهُ مِنَ الشِّرْكِ الجَلِيِّ وَالخَفِيِّ، وَمِنَ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ، وَمِنَ الفُسُوقِ وَالمَعَاصِي ـ كَبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا ـ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، كَالرِّيَاءِ، وَالعُجْبِ، وَالغِلِّ، وَالغِشِّ، وَالحِقْدِ، وَالحَسَدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ**

---

(١) شرح حديث شداد بن أوس (ص٤١)، للعلامة الرباني ابن رجب الحنبلي.

القَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ القَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**»[1].

هَذَا القَلْبُ أَحَبُّ القُلُوبِ إِلَى اللهِ وأكثَرُهَا «خيراً، تنبعُ منهُ عيونُ الخيرِ، وَتَتَفَجَّرُ منهُ يَنَابيعُ البرِّ، وَمَبَارُّ اللهِ ونِعَمُهُ تَغشَاهُ عَلَى الدَّوَامِ»[2].

العَلَامَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَرْتَحِلَ عَنِ الدُّنيَا حَتَّى يَنْزِلَ بِالآخِرَةِ، وَيَحِلَّ فِيهَا، حَتَّى يَبْقَى كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَأَبْنَائِهَا، جَاءَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ غَرِيباً يَأْخُذُ مِنْهَا حَاجَتَهُ، وَيَعُودُ إِلَى وَطَنِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**كُنْ فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ**»[3].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص٦٠٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٠٢).

وَقَالَ عَلِيٌّ ﵁: ارْتَحَلَتِ الدُّنيا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»[1].

وَكُلَّمَا صَحَّ القَلْبُ مِنْ مَرَضِهِ؛ تَرَحَّلَ إِلَى الآخِرَةِ، وَقَرُبَ مِنْهَا، حَتَّى يَصِيرَ مِنْ أَهْلِهَا، وَكُلَّمَا مَرِضَ القَلْبُ وَاعْتَلَّ، آثَرَ الدُّنْيَا وَاسْتَوْطَنَهَا، حَتَّى يَصِيرَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَانِ سَافَرُوا فِي طَلَبِ الدُّنيَا وَهِيَ عَنْهُم زَائِلَةٌ، وَقَعَدُوا عَنِ السَّفَرِ إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ إِلَيْهَا رَاحِلُونَ. «يَسْعَونَ لِمَا يُدْرِكُونَ، وَيَتْرُكُونَ مَا هُمْ بِهِ مُطَالَبُونَ، وَيَعْمُرُونَ مَا هُمْ عَنْهُ مُنْتَقِلُونَ، وَيُخَرِّبُونَ مَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[2].

العَلَامَةُ الثالثةُ: أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَضْرِبُ عَلَى صَاحِبِهِ

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٣٩) معلقاً مجزوماً به. وانظر الكلام عَلَى هذا الأثر فِي «الفتح» (١١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).
(٢) التبيان فِي أقسام القرآن (ص٣٠٧).

حَتَّى يُنِيبَ إِلَى اللهِ، وَيُخْبِتَ إِلَيْهِ، وَيَتَعَلَّقَ بِهِ تَعَلُّقَ الْمُحِبِّ الْمُضْطَرِّ إِلَى مَحْبُوبِهِ، الَّذِي لَا حَيَاةَ لَهُ، وَلَا فَلَاحَ، وَلَا نَعِيمَ، وَلَا سُرُورَ؛ إِلَّا بِرِضَاهُ وَقُرْبِهِ وَالأُنْسِ بِهِ، فَبِهِ يَطْمَئِنُّ، وَإِلَيْهِ يَسْكُنُ، وَإِلَيْهِ يَأْوِي، وَبِهِ يَفْرَحُ، وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ، وَبِهِ يَثِقُ، وَإِيَّاهُ يَرْجُو، وَلَهُ يَخَافُ.

«فَيَا لَهُ مِنْ قَلْبٍ، مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، وَمِنْ قُرْبِهِ مَا أَحْظَاهُ»[١]. قَدْ نَالَ غِذَاءَهُ وَدَوَاءَهُ، وَشِفَاءَهُ وَحَيَاتَهُ، وَنُورَهُ وَقُوَّتَهُ، وَلَذَّتَهُ وَنَعِيمَهُ، مَا هُوَ أَجَلُّ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ، وَأَطْيَبُ الطَّيِّبَاتِ، وَأَعْظَمُ اللَّذَّاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧][٢].

العَلَامَةُ الرابعة: أَنَّهُ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَسْأَمُ مِنْ خِدْمَتِهِ، وَلَا يَأْنَسُ بِغَيْرِهِ، إِلَّا بِمَنْ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ، وَيُذَكِّرُهُ بِهِ، وَيُذَاكِرُهُ بِهَذَا الأَمْرِ. فَذِكْرُ اللهِ عِنْدَهُ أَحْلَى مِنَ

---

(١) طريق الهجرتين (ص٣٧٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢).

العَسَلِ، وَأَشْهَى مِنَ المَاءِ العَذْبِ الصَّافِي عِنْدَ العَطْشَانِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ.

❁ **العَلَامَةُ الخامسةُ:** أَنَّهُ «إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ القَبَائِحُ؛ نَفَرَ مِنْهَا بِطَبْعِهِ، وَأَبْغَضَهَا، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا»[1]، حَيَاؤُهُ يَمْنَعُهُ عَنِ القَبَائِحِ، وَالحَيَاءُ «هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الخَيْرِ أَجْمَعِهِ»[2].

فَإِنَّ حَيَاةَ القَلْبِ هِيَ المَانِعَةُ مِنَ القَبَائِحِ الَّتِي تُفْسِدُ القَلْبَ. فَإِنَّ الحَيَّ يَظْهَرُ عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ بِالقَبِيحِ، وَلَهُ إِرَادَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ فِعْلِ القَبِيحِ، بِخِلَافِ الوَقِحِ الَّذِي لَيْسَ بِحَيٍّ فَلَا حَيَاءَ مَعَهُ، وَلَا إِيمَانَ يَزْجُرُهُ عَنْ ذَلِكَ[3]. فَلَا يَحُسُّ بِمَا يُؤْلِمُهُ مِنَ القَبَائِحِ.

لِذَلِكَ تَرَاهُ يَرْضَى بِتَبَرُّجِ زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ، وَمُخَالَطَتِهَا لِلرِّجَالِ، وَدُخُولِهَا عَلَيْهِم وَدُخُولِهِم عَلَيْهَا،

---

(١) موارد الأمان (ص٥٥).

(٢) الداء والدواء (ص١١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٩ ـ ١١٠).

حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ وَعَظُمَ البَلَاءُ. وَمِنْ تِلْكَ البَلايَا: الأَجْهِزَةُ الخَبِيثَةُ الَّتِي يُدْخِلُهَا المُسْلِمُ بَيْتَهُ، فَإِنَّهَا تُرَبِّي زَوجَتَهُ وَبَنَاتَهُ عَلَى ذَهَابِ الحَيَاءِ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَع مَا شِئْتَ**»[1].

العَلَامَةُ السادسةُ: أَنَّهُ إِذَا فَاتَتْهُ طَاعَةٌ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَجَدَ لِفَوَاتِهَا أَلَمًا أَعْظَمَ مِنْ تَأَلُّمِ الحَرِيصِ بِفَوَاتِ مَالِهِ وَفَقدِهِ[2]. كَمَنْ يَحْزَنُ عَلَى فَوتِ الجَمَاعَةِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَو تُقُبِّلَت مِنْهُ صَلَاتُهُ مُنْفَرِداً، فَإِنَّهُ قَدْ فَاتَهُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ ضِعْفاً[3].

وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً يُعَانِي البَيْعَ وَالشِّرَاءَ يَفُوتُهُ صَفْقَةٌ وَاحِدَةٌ فِي بَلَدِهِ ـ مِنْ غَيْرِ سَفَرٍ وَلَا مَشَقَّةٍ ـ قِيمَتُهَا سَبْعَةٌ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠).

(٢) إغاثة اللهفان (ص٧٩).

(٣) الوابل الصيب (ص١٦).

وَعِشْرُونَ دِينَاراً، لأَكَلَ يَدَيْهِ نَدَماً وَأَسَفاً. فَكَيْفَ وَكُلُّ ضِعْفٍ مِمَّا تُضَاعَفُ بِهِ صَلاَةُ الجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ، وَأَلْفِ أَلْفٍ، وَمَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى؟!

فَإِذَا فَوَّتَ العَبْدُ عَلَيْهِ هَذَا الرِّبحَ، وَهُوَ بَارِدُ القَلْبِ، فَارِغٌ مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ، فَهَذَا مِنْ عَدَمِ تَعْظِيمِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ[1].

وَكُلَّمَا «كَانَ وُجُودُ الشَّيءِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيءَ عَلَى الإِطْلَاقِ، أَنْفَعُ لِلعَبْدِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمِهِ بِحُبِّهِ، وَإِيثَارِهِ لِمَرضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ آلَمُ شَيءٍ لَهُ وَأَشَدُّهُ عَلَيْهِ»[2]. وَهَذا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَعَلَى حَيَاتِهِ[3].

---

(١) الوابل الصيب (ص١٦ ـ ١٧).

(٢) الداء والدواء (ص٣٠٤).

(٣) طريق الهجرتين (ص٥٠٤ ـ ٥٠٥).

۞ **العَلَامَةُ السَّابعةُ:** أَنَّهُ يَشْتَاقُ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِ، كَمَا يَشْتَاقُ الجَائِعُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

فَلَوْ عَطَّلَ «الطَّاعَاتِ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الحُوتُ إِذَا فَارَقَ المَاءَ حَتَّى يُعاوِدَهَا، فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّ عَيْنُهُ»[1].

۞ **العَلَامَةُ الثَّامِنَةُ:** أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ ذَهَبَ عَنْهُ هَمُّهُ وَغَمُّهُ بِالدُّنْيَا، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ خُرُوجُهُ مِنْهَا، وَوَجَدَ فِيهَا رَاحَتَهُ وَنَعِيمَهُ، وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَسُرُورَ قَلْبِهِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاةَ، أَرِحْنا بِهَا**»[2]. وَلَمْ يَقُلْ: أَرِحْنَا مِنْهَا، كَمَا يَقُولُ المُبْطِلُونَ الغَافِلونَ[3].

وَقَال ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَت قُرَّةُ**

---

(١) الداء والدواء (ص٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧١).

(٣) طريق الهجرتين (ص٣٠٧).

عَينِي في الصَّلاةِ»[1].

«وَمَنْ كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شِيءٍ فَإِنَّهُ يَوَدُّ أَلَّا يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ، فَإِنَّ قُرَّةَ عَيْنِ العَبْدِ نَعِيمُهُ وَطِيبُ حَياتِهِ بِهِ»[2].

وَالغَافِلُ المُعْرِضُ لَيسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ الصَّلاةُ كَبِيرَةٌ شَاقَّةٌ عَلَيهِ، إِذَا قَامَ فِيهَا كَأَنَّهُ عَلَى الجَمْرِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَيهِ أَعْجَلُهَا وَأَسْرَعُهَا، فَإِنَّهُ لَيسَ لَهُ قُرَّةُ عَينٍ فِيهَا، وَلا لِقَلْبِهِ رَاحَةٌ بِهَا[3]. فَهِيَ كَبِيرَةٌ عَلَى هَذَا، وَقُرَّةُ عَينٍ وَرَاحَةٌ لِذَلِكَ[4].

فَسُبحَانَ مَنْ فَاضَلَ بَينَ النُّفُوسِ، وَفَاوَتَ بَينَهَا هَذَا التَّفَاوُتَ العَظِيمَ.

العَلَامَةُ التَّاسِعَةُ: أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ وَاحِداً، وَأَنْ

---

(١) رواه النسائي (٣٩٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٣٦٨١).

(٢) طريق الهجرتين (ص٥٧٩).

(٣) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٣٨).

(٤) الصلاة وحكم تاركها (ص١٧٠).

يَكُونَ فِي اللهِ تَعَالَى. فَيصْبِحُ وَيُمْسِي وَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ غَيْرُ رِضَا رَبِّهِ، «قَدْ قَطَعَ هَمُّهُ بِرَبِّهِ عَنْهُ جَمِيعَ الهُمُومِ»[1]. فَهَذَا غَايَةُ سَعَادَةِ العَبْدِ[2]. فَمَا أَطْيَبَ عَيشَهُ! وَمَا أَنْعَمَ قَلْبَهُ وَأَعْظَمَ سُرُورَهُ وَفَرَحَهُ![3].

وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا، وَصَارَتْ هَمًّا وَاحِداً فِي مَرْضَاةِ اللهِ؟ وَلَمْ يَتَشَعَّب قَلْبُهُ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ، وَاجْتَمَعَتْ إِرَادَتُهُ وَأَفْكَارُهُ عَلَى اللهِ.

وَأَيُّ عَيْشٍ أَنْكَدُ مِنْ عَيْشِ مَنْ قَلْبُهُ مُشَتَّتٌ، وَهَمُّهُ مُفَرَّقٌ، فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ.

العَلَامَةُ العَاشِرَةُ: أَنْ يَكُونَ أَشَحَّ بِوَقْتِهِ أَنْ يَذْهَبَ ضَائِعاً مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ شُحّاً بِمَالِهِ. فَإِنَّ الفَلَاحَ كُلَّ الفَلَاحِ فِي الشُّحِّ بِالوَقْتِ.

فَهُوَ «يَرَى عِزَّةَ وَقْتِهِ وَخَطَرَهُ وَشَرَفَهُ وَأَنَّهُ رَأْسُ مَالِ

---

(١) طريق الهجرتين (ص٤٢).
(٢) الداء والدواء (ص٩٠).
(٣) فوائد الفوائد (ص٨٥).

سَعَادَتِهِ، فَيَبْخَلُ بِهِ أَنْ يُضَيِّعَهُ فِيمَا لَا يُقَرِّبُهُ إِلَى رَبِّهِ؛ فَإِنَّ فِي إِضَاعَتِهِ الْخُسْرَانَ وَالْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ، وَفِي حِفْظِهِ وَعِمَارَتِهِ الرِّبْحَ وَالسَّعَادَةَ، فَيَشُحُّ بِأَنْفَاسِهِ أَنْ يُضَيِّعَهَا فِيمَا لَا يَنْفَعُهُ يَوْمَ مَعَادِهِ»[1]. فَيَرَى «أَشَدَّ الأَشْيَاءِ عَلَيْهِ ضَيَاعَ شَيءٍ مِنْ وَقْتِهِ وَوقُوفَهُ عَنْ سَيْرِهِ»[2] إِلَى رَبِّهِ؛ لأَنَّ إِضَاعَةَ الوَقْتِ تَقْطَعُهُ عَنِ الخَالِقِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ.

❁ **العَلَامَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ:** أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُ بِتَصْحِيحِ العَمَلِ أَعْظَمَ مِنْهُ بِالعَمَلِ، فَيَشْهَدُ سِتَّةَ مَشَاهِدٍ:

المَشْهَدُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الحَامِلُ وَالدَّاعِي إِلَى الطَّاعَةِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى.

المَشْهَدُ الثَّانِي: مَشْهَدُ الصِّدقِ وَالنُّصحِ، وَهُوَ أَنَّ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ للهِ فِي الطَّاعَةِ، وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَى اللهِ، وَجَمْعِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَإِيقَاعِهَا عَلَى أَحْسَنِ الوجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ظَاهِراً وَبَاطِناً.

---

(١) الروح (ص٣٠١).

(٢) طريق الهجرتين (ص٥٨٠).

المَشْهَدُ الثَّالِثُ: مَشْهَدُ المُتَابَعَةِ وَالاقْتِدَاءِ، بِالنَّبِيِّ ﷺ.

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ الإِحْسَانِ وَهُوَ مَشْهَدُ المُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

المَشْهَدُ الخَامِسُ: مَشْهَدُ المِنَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ المِنَّةَ للهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فِي أَيِّ طَاعَةٍ يَفْعَلُهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٥٣].

المَشْهَد السَّادِسُ: مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ، وَأَنَّ العَبْدَ لَوِ اجْتَهَدَ فِي القِيَامِ بِالأَمْرِ غَايَةَ الاجْتِهَادِ وَبَذَلَ وُسْعَهُ فَهُوَ مُقَصِّرٌ، وَحَقُّ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالعُبُودِيَّةِ وَالخِدْمَةِ فَوْقَ ذَلِكَ

بِكَثِيرٍ، وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي مِنَ العُبُودِيَّةِ مَا يَلِيقُ بِهَا.

فَهَذِهِ سِتَّةُ مَشَاهِدٍ لَا يَشْهَدُهَا إِلَّا القَلْبُ الحَيُّ السَّلِيمُ.

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ: يَخَافُ أَنْ لا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قَالَتْ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُم، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**»[١].

فَيَا لَهَا مِنْ مَشَاهِدَ، مَا أَجَلَّهَا وَأَعْلَاهَا، وَمَا أَعْظَمَ حَظَّ مَنْ نَالَهَا وَتَبَوَّأَ عُلَاهَا.

وَبِالجُمْلَةِ؛ فَالقَلْبُ السَّلِيمُ: هَمُّهُ كُلُّهُ فِي اللهِ، وَحُبُّهُ

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني رحمه الله فِي «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٨٧).

كُلُّهُ لَهُ، وَقَصْدُهُ لَهُ، أَفْكَارُهُ تَحُومُ عَلَى مَرَاضِيهِ وَمَحَابِّهِ. فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ للهِ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ للهِ وَبِاللهِ، وَإِنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ اللهِ، وَإِنْ سَكَنَ فَسُكُونُهُ اسْتِعَانَةٌ عَلَى مَرْضَاةِ اللهِ.

لَا يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ، وَلَا يَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ. فَلَا يَسْتَغْنِي إِلَّا بِاللهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَّا إِلَى اللهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لِمَرْضَاةِ اللهِ، وَلَا يَحْزَنُ إِلَّا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ اللهِ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا أَنْ يَفُوتَهُ رِضَا اللهِ، وَسَيْرُهُ دَائِمًا إِلَى اللهِ، تَعْتَرِضُهُ كَثْرَةُ جُيُوشِ الشَّهَوَاتِ، وَتُغِيرُ عَلَى قَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَهُوَ هَارِبٌ إِلَى رَبِّهِ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الجُيُوشِ، يَتَحَمَّلُ مِنْهَا لِأَجْلِ اللهِ مَا لَا تَتَحَمَّلُهُ الجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ. وَحَالُهُ كَمَا قِيلَ:

تَزُولُ الجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَقَلْبُهُ
عَلَى العَهْدِ لَا يَلْوِي وَلَا يَتَغَيَّرُ[1]

هَذِهِ عَلَامَاتُ القَلْبِ السَّلِيمِ، فَلَهُ النَّعِيمُ المُقِيمُ،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤١٤).

وَالعَيْشُ السَّلِيمُ، فِي جِوَارِ الرَّبِّ الكَرِيمِ.

فَلنَتَأَمَّلْ قَدْرَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَلْنَتَدَبَّرهَا حَقَّ التَّدَبُّرِ، وَلْنَزِنْ أَنْفُسَنَا بِهَا، وَلْنَنْظُرْ أَينَ نَحْنُ مِنْهَا؟!

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الحُسنَى وصِفَاتِهِ العُلَى، أَنْ يَرْزُقَنَا قُلُوباً سَلِيمَةً، إِنَّه وَليُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيهِ.





عِلَاجُ القُلُوبِ

اعْلَمْ ـ أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ ـ بِأَنَّ القَلُوبَ تَمْرَضُ بِالمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ، وَتَأْثِيرُ «الذُّنُوبِ فِي القُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الأَمْرَاضِ فِي الأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ القُلُوبِ وَدَاؤُهَا، وَلا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُهَا»[1].

قَالَ ابنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ
وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إدمَانُهَا
وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ
وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا[2]

فَإِنْ عَالَجَهُ صَاحِبُهُ شُفِيَ، وَإِنْ تَرَكَهُ تَزَايَدَ المَرَضُ حَتَّى يَمُوتَ، قَالَ تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ

(١) الداء والدواء (ص١٢١). (٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠٣).

مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِقَلْبِهِ، وَيَحْرِصَ عَلَى أَنْ يُعَالِجَهُ بِالأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أوَّلاً: قِرَاءَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالتَّدَبُّرِ:

القُرْآنُ الكَرِيمُ: رَبِيعُ القُلُوبِ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ، وَنُورُ البَصَائِرِ، وَحَيَاةُ الأَرْوَاحِ، وَهُوَ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ[(١)]. يَسْتَضِيءُ بِهِ العَبْدُ فِي ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَتَعَزَّى بِهِ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ، وَيَتَعَزَّى بِهِ عَنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ، وَيَسْتَشْفِي بِهِ مِنْ أَدْوَاءِ قَلْبِهِ[(٢)].

قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

---

(١) شفاء العليل (ص٦٢٩).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠١)، بتصرف يسير.

وَقَـــالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً تَامّاً لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَمَنِ اسْتَشْفَى بِهِ صَحَّ وَبَرِىءَ مِنْ مَرَضِهِ.

فَيَا مَنْ تَبْحَثُ عَنْ دَوَاءٍ لِقَلْبِكَ، دَوَاؤُكَ فِي القُرْآنِ.

وَيَا مَنْ تَبْحَثِينَ عَنْ دَوَاءٍ لِقَلْبِكِ، دَوَاؤُكِ فِي القُرْآنِ.

وَكَـــيـــفَ تُـــقَـــاوِمُ الأَدوَاءُ كَـــلَامَ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ[1]، الَّذِي لَو أُنزِلَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجلالَتِهِ[2].

فَتَدَبَّر فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالقِيَام بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالإِقْبَالِ عَلَيْهِ.

ثَانِياً: ذِكْرُ اللهِ:

اعْلَم ـ أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ ـ بِأَنَّ لِذِكْرِ اللهِ آثَاراً جَلِيلَةً عَلَى القَلْبِ، مِنْهَا:

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).

(٢) المصدر السابق.

أ ـ شِفَاءُ القَلْبِ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى دَوَاءُ القَلْبِ، وَالغَفْلَةُ مَرَضُهُ، فَالقُلُوبُ مَرِيضَةٌ، وَشِفَاؤُهَا فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى. كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمْ
فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَاناً فَنَنْتَكِسُ[1]

ب ـ جَلَاءُ القَلْبِ: وَذِكْرُ اللهِ يُورِثُ جَلَاءَ القَلْبِ مِنْ صَدَئِهِ. «وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَلْبَ يَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ النُّحَاسُ وَالفِضَّةُ وَغَيْرُهُمَا، وَجَلَاؤُهُ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّهُ يَجْلُوهُ حَتَّى يَدَعَهُ كَالمِرْآةِ البَيضَاءِ؛ فَإِذَا تَرَكَ الذِّكْرَ صَدِىءَ، فَإِذَا ذَكَرَ جَلَاهُ.

وَصَدَأُ القَلْبِ بِأَمْرَيْنِ: بِالغَفْلَةِ وَالذَّنْبِ، وَجَلَاؤُهُ بِشَيْئَيْنِ: بِالاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ»[2].

ج ـ حَيَاةُ القَلْبِ: حياةُ القلبِ بدوامِ الذِّكرِ، لا حَيَاةَ لَهُ بِدُونِ ذَلِكَ أبداً. فَإِنَّهُ «لِلقَلْبِ مِثْلُ المَاءِ لِلسَّمَكِ،

---

(١) الوابل الصيب (ص١٧١ ـ ١٧٢).
(٢) الوابل الصيب (ص٩٢).

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ السَّمَكِ إِذَا فَارَقَ المَاءَ؟!»[1].

بَلْ إِنَّ القُلُوبَ المَيِّتَةَ تَحْيَى بِالذِّكْرِ، كَمَا تَحْيَى الأَرْضُ المَيِّتَةُ بِالقَطْرِ.

وَالذِّكْرُ فِيهِ حَيَاةُ القُلُوبِ كَمَا
يُحْيِي البِلَادَ إِذَا مَا مَاتَتِ المَطَرُ

وَالقَلْبُ الذَّاكِرُ كَالحَيِّ فِي بُيُوتِ الأَحْيَاءِ، وَالغَافِلُ كَالمَيِّتِ فِي بُيُوتِ الأَمْوَاتِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَبْدَانَ الغَافِلِينَ قُبُورٌ لِقُلُوبِهِم، وَقُلُوبُهُم فِيهَا كَالأَمْوَاتِ فِي القُبُورِ، كَمَا قِيلَ:

فَنِسْيَانُ ذِكْرِ اللهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ
وَأَجْسَامُهُم قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

«فَإِنَّ أَبْدَانَهُم قُبُورٌ لِقُلُوبِهِم، فَقَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُم، وَقُبِرَتْ فِي أَبْدَانِهِم»[2].

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الَّذِي**

---

(١) الوابل الصيب (ص٩٦).

(٢) موارد الأمان (ص٥٩).

يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[1].

فَحَقِيقٌ بِالعَبْدِ أَنْ يُنْزِلَ ذِكْرَ اللهِ مِنْهُ، «مَنْزِلَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهَا، وَمَنْزِلَةَ غِذَائِهِ الَّذِي إِذَا فَقَدَهُ فَسَدَ جِسْمُهُ وَهَلَكَ، وَبِمَنْزِلَةِ المَاءِ عِنْدَ شِدَّةِ العَطَشِ، وَبِمَنْزِلَةِ اللِّبَاسِ فِي الحَرِّ وَالبَرْدِ»[2].

د ـ رِقَّةُ القَلْبِ: اعْلَم بِأَنَّ «فِي القَلْبِ قَسْوَةً لَا يُذِيبُهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُدَاوِيَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى؛ لأَنَّ القَلْبَ كُلَّمَا اشْتَدَّتْ بِهِ الغَفْلَةُ، اشْتَدَّت بِهِ القَسْوَةُ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى، ذَابَتْ تِلْكَ القَسْوَةُ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فِي النَّارِ، فَمَا أُذِيبَتْ قَسْوَةُ القُلُوبِ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللهِ عزّ وجلّ»[3].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).
(٢) الوابل الصيب (ص١٠٥ ـ ١٠٦).
(٣) الوابل الصيب (ص١٧١).

مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ قَدِرَ عَلَى إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِوَابِلِ القَطْرِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ القُلُوبِ المَيِّتَةِ القَاسِيَةِ بِالذِّكْرِ.

عَسَى مَنْ أَحْيَى الأَرْضَ المَيِّتَةَ بِالقَطْرِ، أَنْ يُحيِيَ القُلُوبَ المَيِّتَةَ بِالذِّكْرِ[1].

هـ ـ تَنْبِيهُ القَلْبِ: وَالذِّكْرُ «يُنَبِّهُ القَلْبَ مِنْ نَوْمِهِ، وَيُوقِظُهُ مِنْ سِنَتِهِ، وَالقَلْبُ إِذَا كَانَ نَائِمًا فَاتَتْهُ الأَرْبَاحُ وَالمَتَاجِرُ، وَكَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ الخُسْرَانَ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَعَلِمَ مَا فَاتَهُ فِي نَوْمَتِهِ شَدَّ المِئْزَرَ، وَأَحْيَى بَقِيَّةَ عُمُرِهِ، وَاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَهُ، وَلَا تَحْصُلُ يَقَظَتُهُ إِلَّا بِالذِّكْرِ، فَإِنَّ الغَفْلَةَ نَوْمٌ ثَقِيلٌ»[2].

و ـ نُورُ القَلْبِ: الذكرُ نُورٌ في القَلْبِ. فَمَا

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٤٤).

(٢) الوابل الصيب (ص١٥٧).

اسْتَنَارَتِ القُلُوبُ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى. وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ، وَالفَلَاحُ كُلُّ الفَلَاحِ فِي النُّورِ، وَالشَّقَاءُ كُلُّ الشَّقَاءِ فِي فَوَاتِهِ[1]. وَإذا «اسْتَنَارَ القَلبُ أَقْبَلَت وُفُودُ الخَيراتِ إِلَيهِ مِنْ كُلِّ نَاحيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ إِذا أَظْلَمَ أقْبَلَتْ سَحَائِبُ البَلاءِ وَالشَّرِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»[2].

ثَالِثاً: العِلْمُ النَّافِعُ:

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ بِأَنَّ أَمْرَاضَ القُلُوبِ كُلَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنِ الجَهْلِ وَدَوَاؤُهَا العِلْمُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ صَاحِبِ الشُّجَّةِ الَّذِي أَفْتَوْهُ بِالغُسْلِ فَمَاتَ: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»[3]. فَجَعَل العِيَّ ـ وَهُو عِيُّ القَلْبِ عَنِ العِلْمِ وَاللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ـ مَرَضاً، وَشِفَاؤُهُ سُؤَالُ العُلَمَاءِ.

---

(١) الوابل الصيب (ص١٥٧).

(٢) الداء والدواء (ص٢٧٥).

(٣) رواه أبو داود (٣٣٦)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٠١).

فَأمْرَاضُ القُلُوبِ أَصْعَبُ مِنْ أَمْرَاضِ الأَبْدَانِ؛ لأَنَّ غَايَةَ مَرَضِ البَدَنِ أَنْ يُفْضِيَ بِصَاحِبِهِ إِلَى المَوْتِ، وَأَمَّا مَرَضُ القَلْبِ فَيُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الشَّقَاءِ الأَبَدِيِّ، وَلَا شِفَاءَ لِهَذَا المَرَضِ إِلَّا بِالعِلْمِ[1].

فَكَمَا أَنَّهُ لَا حَيَاةَ لِلأَرْضِ إِلَّا بِالمَطَرِ، فَكَذَلِكَ لَا حَيَاةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا بِالعِلْمِ.

وَلِهَذَا؛ فَإِنَّ الأَرْضَ إِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَى المَطَرِ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَإِذَا تَتَابَعَ عَلَيْهَا احْتَاجَتْ إِلَى انْقِطَاعِهِ، وَأَمَّا العِلْمُ فَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ القَلْبُ بِعَدَدِ الأَنْفَاسِ، وَلَا يَزِيدُهُ كَثْرَتُهُ إِلَّا صَلَاحاً وَنَفْعاً[2].

فَحَاجَةُ القَلْبِ إِلَى العِلْمِ لَيْسَتْ كَالحَاجَةِ إِلَى التَّنَفُّسِ فِي الهَوَاءِ، بَلْ أَعْظَمُ.

وَبِالجُمْلَةِ؛ فَالعِلْمُ لِلْقَلْبِ مِثلُ المَاءِ لِلسَّمَكِ؛ إِذَا فَقَدَهُ مَاتَ، فَنِسْبَةُ العِلْمِ إِلَى القَلْبِ كَنِسْبَةِ ضَوْءِ العَيْنِ إِلَيْهَا،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

وَكَنِسْبَةِ سَمْعِ الأُذُنِ كَلَامَ اللِّسَانِ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَدِمَهُ كَانَ كَالعَيْنِ العَمْيَاءِ، وَالأُذُنِ الصَّمَّاءِ؛ وَاللِّسَانِ الأَخْرَسِ(١).

وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ المَورُوثِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ العِلْمُ النَّافِعُ(٢).

رَابِعاً: أَكْلُ الحَلالِ وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ:

عَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشَيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»**(٣).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧١).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٤).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ أَكْلَ الحَلالِ، يُصْلِحُ القَلْبَ، وَأَكْلُ الحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ يُفْسِدُهُ. وَيُخَافُ على آكِلِ الحَرَامِ وَالمُتَشَابِهِ، أَلَّا تُسْمَعَ لَهُ دَعْوَةٌ. أَلَا تَسْمَعُ قَولَهُ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**»[1].

خامساً: مُطَالَعَةُ القَلْبِ لِلأَسمَاءِ الحُسنَى وَالصِّفَاتِ العُلَى:

اعْلَمْ - أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ - بِأَنَّ «صَلاحَ القَلْبِ وَاسْتِقَامَتَهُ عَلَى طَرِيقِ سَيرِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مُتَوَقِّفٌ عَلَى

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

جَمْعِيَّتِهِ عَلَى اللهِ، وَلَمِّ شَعَثِهِ بِإِقْبَالِهِ بِالكُلِّيَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى»[1]. وَلو فُرِضَتْ لَذَّاتُ أَهْلِ الدُّنيَا بأَجْمَعِهَا حَاصِلَةً لِرَجُلٍ، لَمْ يَكُنْ لَهَا نِسْبَةٌ إِلَى لَذَّةِ جَمْعِيَّةِ قَلْبِهِ عَلَى اللهِ[2].

وَأَعْظَمُ سَبَبٍ لاسْتِقَامَةِ القَلْبِ: مُطَالَعَةُ القَلْبِ لأَسْمَاءِ اللهِ الحُسنَى وَصِفَاتِهِ العُلَى. فَإِنَّهَا تَدعُو إِلىٰ مَحَبَّتِهِ وَخَشيَتِهِ، وَخَوفِهِ وَرَجَائِهِ، وَإِخلاصِ العَمَلِ لَهُ؛ وَهَذَا هُوَ المَطلَبُ الأَعلَىٰ، وَالمَقصَدُ الأَسنَىٰ، وَهَذَا عَينُ سَعَادَةِ العَبدِ.

وَلْنَذْكُر مِثَالاً وَاحِداً: «المُرَاقَبَةُ الَّتي هِيَ مِنْ أَعلَى أَعْمَالِ القُلُوبِ هِيَ التَّعَبُّدُ للهِ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ، فَمَتَى عَلِمَ العَبدُ أَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ قَد أَحَاطَ اللهُ بِعِلمِهَا، وَاسْتَحْضَرَ هَذَا العِلْمَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ حِرَاسَةَ بَاطِنِهِ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَهَاجِسٍ يُبْغِضُهُ اللهُ، وَحَفِظَ ظَاهِرَهُ عَنْ كُلِّ قَولٍ أَو فِعْلٍ

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٨٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٦٣).

يُسْخِطُ اللهَ، وَتَعَبَّدَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ فَعَبَدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ»[1].

فَتَأَمَّلَ كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الدِّينِ، وَكُلَّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ، كَيْفَ تَجِدُ هَذَا أَصْلَهُ وَمَنْبَعَهُ[2].



---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ٢٤٢).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٥).



صورٌ مشرقةٌ لأصحابِ القلوبِ السليمةِ

وَفِيمَا يَلِي نُورِدُ نَمَاذِجَ مُشَرِّفَةً، وَصُوَراً مُشْرِقَةً، لأَصحَابِ القُلُوبِ السَّلِيمَةِ؛ فَاقْرَأها بِتَدَبُّرٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ؛ سَائِلاً رَبَّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَا.

١ ـ عَنْ عَامِرِ بنِ سَعدٍ قَالَ: كَانَ سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ ﵁ في إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ. فَنزَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ في إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ المُلْكَ بَينَهُم؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ في صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»[1].

وَالخَفِيُّ: مَعناهُ الخَامِلُ المُنْقَطِعُ إِلى العِبَادَةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).

والاشْتِغَالِ بِأُمُورِ نَفْسِهِ[1]. لا يَهْتَمُّ أَنْ يَظْهَرَ عِنْدَ النَّاسِ، أَو يُشَارَ إِليهِ بِالبَنَانِ، أَو يَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنهُ[2]. إنسانٌ خَفِيٌّ لا يُحِبُّ الظُّهُورَ وَلا يَتَصَدَّرُ لِشَيءٍ، لأَنَّ أَهَمَّ مَا عِنْدَهُ هُوَ مَحَبَّةُ اللهِ لَهُ وَرِضَا اللهِ عَنهُ.

٢ ـ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ حَنْظَلَةَ: أَنَّ عَبدَ اللهِ بنَ سَلامٍ مَرَّ فِي السُّوقِ، وَعَلَيهِ حُزْمَةٌ مِنْ حَطَبٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيسَ اللهُ قَدْ أَعْفَاكَ عَنْ هَذَا؟! قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَدْفَعَ بِهِ الكِبْرَ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ: مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**»[3].

وَلَعَلَّهُ مِنَ المُفِيدِ أَنْ نُذَكِّرَ القَارِئَ: بَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) شرح مسلم (١٨/ ١٠٠ ـ ١٠٢).

(٢) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٠٠)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «الزهد» (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨): ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣) رقم (١٢٩) ـ القسم المفقود ـ، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩١٠).

عَرَّفَ الكِبْرَ بِقَوْلِهِ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1].

فَبَطَرُ الحَقِّ: رَدُّهُ وَجَحْدُهُ، وَدَفْعُهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﵁: أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ. فَقَالَ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «**لَا اسْتَطَعْتَ**» مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ[2].

وَغَمْطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُم وَازْدِرَاؤُهُم، وَمَتَى احْتَقَرَهُم وَازْدَرَاهُم وَقَعَ فِي العُجْبِ، وَهُوَ من أَعظَمِ المُهلِكَاتِ وَفَظَائِعِ الأُمُورِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»[3].

٣ ـ عَنْ عَدِيِّ بنِ أَرْطَاةَ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ

---

(١) رواه مسلم (٩١). (٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٣) رواه البزار «كشف الأستار» (٨٢)، وحسنه الألباني ﵀ بطرقه وشواهده في «الصحيحة» (١٨٠٢).

أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا زُكِّيَ، قَالَ: اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذْني بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لا يَعْلَمُونَ[1].

٤ ـ وَلَمَّا طُعِنَ الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «جَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ: مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقِدَمٍ فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنْ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الغُلَامَ، قَالَ: ابْنَ أَخِي! ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَنْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ»[2].

يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ مَا أَجَلَّهُ. عُمَرُ الفَارُوقُ رضي الله عنه صَاحِبُ القَلْبِ السَّلِيمِ لَمْ يَتْرُكِ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، فِي هَذَا المَوْطِنِ، امْتِثَالاً لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد» (٧٦١)، وصحح إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٩).
(٢) رواه البخاري (٣٧٠٠) ـ في حديث طويل ـ.

«مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان»[1].

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي القَلْبِ إِنْكَارُ مَا يَكْرَهُهُ [اللهُ] وَيُبْغِضُهُ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِيمَانٌ[2].

٥ ـ عَنْ عَطَاءَ بنِ أَبي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابنُ عَباسٍ رضي الله عنهما: أَلا أُرِيكَ امرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوداءُ، أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي؛ قَالَ: **«إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»** فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[3].

امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ لَا يُؤبَهُ لَهَا فِي المُجْتَمَعِ، كَانَتْ تُصْرَعُ وَتَنْكَشِفُ، فَأَخْبَرَتِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَسَأَلَتْهُ

---

(١) رواه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) الاستقامة (٢/ ٣٦).
(٣) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

أَنْ يَدْعُوَ لَهَا، فَقَالَ لَهَا: «**إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ لَكِ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ**». قَالَتْ: أَصْبِرُ، وَإِنْ كَانَتْ تَتَأَلَّمُ وَتَتَأَذَّى مِنَ الصَّرعِ، لَكِنَّهَا صَبَرَتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ. وَلَكِنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا اللهَ أَنْ لَا تتكَشَّفَ، فَصَارتْ تُصْرَعُ وَلَا تَتَكَشَّفُ[1].

فَهَذِهِ المَرْأَةُ سَوْدَاءُ، لَكِنَّ قَلْبَهَا أَبْيَضُ. قَدْ تَصْبِرُ عَلَى المَرَضِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَى خَدشِ الحَيَاءِ، وَجَرْحِ العَفَافِ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ غَيرِ إِرَادَتِهَا.

أَلَمْ يَأْنِ لِلنِسْوَةِ فِي هَذَا الزَّمَنِ العَصِيبِ أَنْ يَقْتَدِينَ بِهَذِهِ المَرْأَةِ، وَيَتَرَبَّيْنَ عَلَى العَفَافِ وَالحَيَاءِ؟!

٦ ـ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي [عَلَيُّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ]: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ ـ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: عُثْمَانُ ـ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ[1].

٧ ـ قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ لأُوَيسِ بنِ عَامِرٍ: اسْتَغْفِرْ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَينَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الكُوفَةَ، قَالَ: أَلا أَكْتُبُ لَكَ إِلى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِليَّ[2].

أَي: ضِعَافِهِمْ وَصَعَالِيقِهِمْ وَأَخْلاطِهِمُ الَّذِينَ لا يُؤْبَهُ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ إِيثَارِ الخُمُولِ وَكَتْمِ حَالِهِ[3].

٨ ـ قَالَ حَمْزَةُ بنُ دَهْقَانَ: قُلْتُ لِبشرِ بنِ الحَارِثِ (٢٢٧هـ): أُحِبُّ أَنْ أَخْلُوَ مَعَكَ. قَالَ: إِذَا شِئتَ فَيَكُونُ يَوماً. فَرَأَيتُهُ قَدْ دَخَلَ قُبَّةً، فَصَلَّى فِيهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لا أُحْسِنُ أُصَلِّي مِثلَهَا، فَسَمِعتُهُ يَقُولُ في سُجُودِهِ: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إِليَّ مِنَ الشَّرَفِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الفَقرَ أَحَبُّ إِليَّ مِنَ**

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧١).

(٢) انظر: الحديث في «صحيح مسلم» [(٢٢٥ ـ (٢٥٤٢)].

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٧٧ ـ ٧٨).

الغِنَى، اللَّهُمَّ إِنَّك تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِك أَنِّي لا أُوثِرُ على حُبِّكَ شَيئاً.

فَلَمَّا سَمِعتُهُ، أَخَذَنِي الشَّهِيقُ وَالبُكَاءُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي لَو أَعلَمُ أَنَّ هَذَا هَاهُنَا، لَم أَتَكَلَّمْ[1].



(١) السير (١٠/ ٤٧٣).



١ ـ عَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَالمُرَادُ بِالشَّعَائِرِ: العِبَادَاتُ الظَّاهِرَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ كَبِيرَةً أَمْ صَغِيرَةً؛ مِثْلُ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ، وَالسَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَالأَذَانِ وَالإِقَامَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ[1].

فَتَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللهِ صَادِرٌ مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ، فَالمُعَظِّمُ لَهَا، يُبَرْهِنُ عَلَى تَقْوَاهُ، وَصِحَّةِ إِيمَانِهِ، لأَنَّ تَعظِيمَهَا تَابعٌ لِتَعظِيمِ اللهِ وَإِجْلالِهِ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).

فَالذي «يُعَظِّمُ شَعَائِرَ اللهِ فَيَرَى أَنَّهَا عَظِيمَةٌ في قَلْبِهِ، وَيَقُومُ بِمَا يَنْبَغِي لَهَا مِنَ التَّعْظِيمِ بِجَوَارِحِه، فَإِنَّ هذا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ، عَلامَةٌ عَلَى صَلاحِ نِيَّتِهِ وَتَقْوَى قَلْبِهِ، وَإذا اتَّقَى القَلبُ اتَّقَتِ الجَوَارِحُ.

فَعَلَيكَ بِتَعظِيم شَعَائِرِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ تَقْوَى لِقَلْبِكَ، وَأيضاً يَكُونُ خَيراً لَكَ عِنْدَ اللهِ عزّ وجلّ»[1]: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

أَي: وَمَنْ يَجْتَنِب مَعَاصِيهِ وَمَحَارِمَهُ وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيماً فِي نَفْسِهِ، فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وثَوابٌ جَزِيلٌ. فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ المُحَرَّمَاتِ وَاجْتِنَابِ المَحْظُورَاتِ[2].

لأَنَّ تَعظِيمَ حُرُمَاتِ اللهِ، مِنَ الأُمُورِ المَحبُوبَةِ للهِ، المُقَرِّبَةِ إِلَيهِ، الَّتِي مَن عَظَّمَهَا وَأَجَلَّهَا، أَثَابَهُ اللهُ ثَوَاباً

---

(١) شرح رياض الصالحين (٧/ ١٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠١).

جَزِيلاً، وَكَانَت خَيراً لَهُ، فِي دِينِهِ، وَدُنيَاهُ وَأُخرَاهُ، عِندَ رَبِّهِ[1].

⬅ ٢ ـ لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»[2].

⬅ ٣ ـ لِيَكُنْ دُعَاؤُكَ بِحُضُورِ قَلْبٍ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[3].

وَعَنْ سَهْلِ بنِ حُنَيفٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ مِنْ قَلْبِهِ صَادِقاً، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٣)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٧٤٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٢٤٥).

الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[1].

٤ ـ أَطْعِمِ المِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأسَ اليَتِيمِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: **«إِنْ أَرَدْتَ تَلِيينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأسَ اليَتِيمِ»**[2].

٥ ـ إِذَا أَذْنَبتَ ذَنباً فَأَحْدِثْ تَوبَةً:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فإِذَا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»**[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩)، والترمذي (١٦٥٣) واللفظ له.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وحسنه الألباني فِي «صحيح الجامع» ١٤١٠).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني فِي «صحيح الجامع (١٦٧٠).

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرٍ
فَتَابَ مَن الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ وَانْجلى[1]

٦ ـ أَكْثِرْ مِنَ الاسْتِغْفَارِ:

عَنِ الأَغَرِّ المُزَنِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ، مِئَةَ مَرَّةٍ**»[2].

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَغْفِرُ في اليَوم مِئَةَ مَرَّةٍ مَعَ عِظَم شَأنِهِ وَكَونِهِ مَعْصُوماً. فَكَيفَ لا يَشْتَغِلُ بالاسْتِغْفَارِ لَيلاً وَنَهَاراً مَنْ أَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ الذُّنوبُ وَالأَوزَارُ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ المَعَاصِي وَالسَّيئَاتِ؟!

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتغْفِرُ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَكَيفَ بِالَّذِي لَمْ يَظْهَرْ حَالُهُ أَغُفِرَ لَهُ أَمْ لا؟ كَيفَ لا يَسْتَغْفِرُ اللهَ في كُلِّ وَقْتٍ، وَلا يَجْعَلُ لِسَانَهُ أَبَداً مَشْغُولاً بِالاسْتِغْفَارِ، الَّذِي هُوَ المُنَجِّي مِنْ عَذَابِ النَّارِ؟!

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

⬅ ٧ ـ عَلَيكَ بِزِيَارَةِ القُبُورِ:

عَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلَا فَزُورُهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ القَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ...**»(١).

فَهَذِهِ مَوْعِظَةٌ عَظِيمَةٌ إِذَا عَمِلَ الإِنْسَانُ بِهَا، نَفَعَتْهُ وَصَلُحَتْ أَحْوَالُهُ؛ فَهَلْ مِنْ سَامِعٍ مُنِيبٍ، وَأَوَّاهٍ حَلِيمٍ، لِلنَّصِيحَةِ يَسْتَجِيبُ؟!

وَلَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: لَيْسَ عِنْدِي وَقْتٌ لِزِيارَةِ القُبُورِ، فَاعْلَم بَأَنَّ أَصْحَابَ القُبُورِ كَانُوا مِثْلَكَ: أَعْمَالُهُم كَثِيرَةٌ، وَمَاتُوا وَلَمْ يُنْهُوا أَشْغَالَهُم، فَاعْتَبِر بِهَذَا الكَلَامِ، أَعَانَكَ اللهُ وَحَفِظَكَ، وَرَعَاكَ وَسَدَّدَكَ، وَأَيَّدَكَ وَكَفَاكَ، وَهَدَاكَ وَأَحَبَّكَ، وَرَضِيَ عَنْكَ.

⬅ ٨ ـ أَكْثِرْ مِنَ الأَعْمَالِ الخَفِيَّةِ:

عَنِ الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٤٥٨٤).

«**مَـنِ اسـتَـطَـاعَ أَنْ يَـكُـونَ لَـهُ خَـبِـيءٌ مِـنْ عَـمَـلٍ صَـالِـحٍ فَلْيَفْعَل**»[1].

لَطَالَمَا عَصَينَا اللهَ كَثِيراً فِي السِّرِّ، فَهَلَّا أَكْثَرْنَا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ بَينَنَا وَبَينَ اللهِ؟!

وَلْنَذْكُرْ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ ـ لا الحَصْرِ ـ الأَعْمَالَ التَّالِيَةَ:

أ ـ البُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ:

عَـنْ أَبـي هُـرَيـرَةَ رضي الله عنه قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ** ـ وَذَكَرَ مِنْ بَينِهِم ـ: **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالياً فَفَاضَتْ عَيناهُ**»[2].

وَذِكْرُ اللهِ خَالِياً يَكُونُ أَقْرَبَ لِلخُشُوعِ، وَأَجْلَبَ لِلدُّمُوعِ، وَأَبعَدَ عَنِ الرِّيَاءِ، وَأَصْفَىٰ لِلنَّفْسِ، وَلا يَكُونُ

---

(١) أخرجه الخطيب فِي «التاريخ» (١١/ ٢٦٢)، والضياء المقدسي فِي «الأحاديث المختارة» (٣/ ٧٨) رقم (٨٨٤)، وصححه الألباني فِي «الصحيحة» (٢٣١٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

فِيهِ التِفَاتٌ إِلَّا إِلىٰ اللهِ عزّ وجلّ، وَيَكُونُ البُكَاءُ حِينَئِذٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَخَوفِهِ.

ذَلِكَ بِأَنَّ الخَلْوَةَ مَدْعَاةٌ إِلىٰ قَسْوَةِ القَلْبِ، وَالجُرأَةِ عَلَىٰ المعْصِيَةِ، فَإِذَا مَا جَاهَدَ الإِنسَانُ نَفسَهُ فِيهَا، وَاسْتَشْعَرَ عَظَمَةَ اللهِ فَاضَتْ عَينَاهُ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ ظِلِّ عَرشِ الرَّحْمَنِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

«**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالياً فَفَاضَتْ عَينَاهُ**»: هَذَا الذَّاكِرُ مُسْتَظِلٌّ بِظِلِّ العَرْشِ يَومَ الحَرِّ الأَكْبَرِ، وَالنَّاسُ في حَرِّ الشَّمْسِ قَد صَهَرَتْهُم في المَوقِفِ.

فَهَلَّا وَقَفْتَ يوماً لِوَحْدِكَ وَخَلَوتَ بِاللهِ لا يَعْلَمُ بِكَ إِلَّا اللهُ، فَتَذَكَّرْتَ عَظَمَةَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَمِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ، وَتَذَكَّرْتَ تَقْصِيرَكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ؛ فَخَفَقَ القَلْبُ وَاقْشَعَرَّ البَدَنُ وَسَالَتِ الدَّمْعَةُ عَلَىٰ الخَدَّينِ، فَرُبَّمَا كُنْتَ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ.

هَيَّا بِنَا إِلىٰ البُكَاءِ وَالدُّمُوعِ، لَعَلَّنَا نَسْتَظِلُّ بِظِلِّ العَرْشِ يَومَ القِيَامَةِ: ذَلِكَ اليَومُ الَّذِي يَعرَقُ النَّاسُ فِيهِ إِلىٰ آذَانِهِم!!!

عَـنْ أَبـي هُـرَيـرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «**يَعْرَقُ النَّاسُ يومَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَرَقُهُم في الأَرضِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً، وَيُلْجِمُهُم حَتَّىٰ يَبْلُغَ آذَانَهُم**»[1].

وَعَـنِ الـمـقـدَادِ بـنِ الأَسـودِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَـالَ: سَـمِـعـتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِم في العَرَقِ. فَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلىٰ كَعْبَيهِ، وَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلىٰ رُكْبَتَيهِ، وَمِنهُم مَنْ يَكُونُ إِلىٰ حَقوَيهِ، وَمِنهُم مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلجَاماً**»[2].

إِنَّ الإِنسَانَ في فَصْلِ الصَّيفِ يَعْمَلُ جَاهِداً عَلَىٰ أَن يُذهِبَ الحَرَّ بِوَسَائِلِ التَّبْرِيدِ المخْتَلِفَةِ. فَكَيفَ لا يَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ يَقِيَ نَفسَهُ مِنْ ذَلِكَ الحَرِّ الرَّهِيبِ وَالعَرَقِ الكَثِيرِ، الَّذِي يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ قَدْرِ عَمَلِهِ؟!

ب ـ الدُّعَاءُ بِظَهْرِ الغَيبِ:

عَنْ أَبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**دَعْوَةُ**

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٤).

المَرْءِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ ـ بِظَهرِ الغَيبِ ـ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ؛ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيرٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثلٍ»[1].

وَدُعَاءُ الغَائِبِ لِلْغَائِبِ، أَعْظَمُ إِجَابَةً مِنْ دُعَاءِ الحَاضِرِ، لأَنَّهُ أَكْمَلُ إِخلاصاً وَأَبْعَدُ عَنِ الشِّرْكِ[2].

فَمَنْ دَعَا لأَخٍ لَهُ فِي اللهِ بِظَهْرِ الغَيبِ: بِأَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ قَلْباً سَلِيماً طَاهِراً خَاشِعاً تَقِيّاً، نَقِيّاً لَيِّناً رَقِيقاً، فَإِنَّ المَلَكَ المُوَكَّلَ بِهِ يَقُولُ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثلٍ.

ج ـ الإِكْثَارُ مِنَ النَّوَافِلِ فِي البَيتِ:

عَنْ صُهَيبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**صَلاةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعاً حَيثُ لا يَرَاهُ النَّاسُ، تَعْدِلُ صَلاتَهُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ خَمساً وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»**[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٨).

(٣) رواه أبو يعلى فِي «الكبير»، وصححه الألباني رحمه الله فِي «صحيح الجامع» (٣٨٢١).



نَصِيحَةٌ لِمُشَاهِدِي الأَفْلَامِ المَاجِنَةِ

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ بِأَنَّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ البَدَنِ خُلِقَ لِفِعْلٍ خَاصٍّ، بِهِ كَمَالُهُ فِي حُصُولِ ذَلِكَ الفِعْلِ مِنْهُ. وَمَرَضُهُ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهِ الفِعْلُ الَّذِي خُلِقَ لَهُ.

فَمَرَضُ اليَدِ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهَا البَطْشُ.

وَمَرَضُ العَينِ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهَا النَّظَرُ وَالرُّؤيَةُ.

وَمَرَضُ اللِّسَانِ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهِ النُّطْقُ.

وَمَرَضُ البَدَنِ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهِ حَرَكَتُهُ الطَّبِيعِيَّةُ.

وَمَرَضُ القَلْبِ: أَنْ يَتعَذَّرَ عَلَيهِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالشَّوقِ إِلى لِقَائِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ[1]، وَالأُنْسِ بِهِ، وَتَوحِيدِهِ وَالسُّرُورِ بِهِ وَالابتِهَاجِ بِحُبِّهِ،

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٨).

وَالرِّضَى عَنْهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالحُبِّ فِيهِ، وَالبُغْضِ فِيهِ، وَالمُوَالاةِ فِيهِ، وَالمُعَادَاةِ فِيهِ، وَدَوَام ذِكْرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَرْجَى عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَجَلَّ فِي قَلْبِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ[1]، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ شَهْوَةٍ[2]، وَلا صَلاحَ لِلْقَلْبِ وَلا نَعِيمَ لَهُ وَلا سُرُورَ وَلا لَذَّةَ، بَلْ وَلا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَهَذَا لَهُ بِمَنْزِلَةِ الغِذَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالحَيَاةِ.

فَلَيسَ «لِلْقَلْبِ وَالرُّوحِ أَلَذَّ وَلا أَطيَبَ وَلا أَحْلى وَلا أَنْعَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَالإِقْبَالِ عَلَيهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَقُرَّةِ العَينِ بِهِ وَالأُنْسِ بِقُرْبِهِ وَالشَّوقِ إِلَى لِقَائِهِ وَرُؤيَتِهِ، وَصَاحِبُ هَذِهِ اللَّذَّةِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ نِسْبَتُهَا إِلَى لَذَّاتِ الدُّنيَا، كَنِسْبَةِ لَذَّةِ الجَنَّةِ إِلَى لَذَّةِ الدُّنيَا»[3].

وَكُلُّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَأَخْلَصَ العِبَادَةَ لَهُ وَلا بُدَّ، وَلَمْ يُؤثِرْ عَلَيهِ شَيئاً مِنَ المَحْبُوبَاتِ، فَمَنْ آثَرَ عَلَيهِ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٠٢). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٦٨).

(٣) روضة المحبين (ص١٨٠).

شَيئاً مِنَ المَحْبُوبَاتِ؛ فَقَلْبُهُ مَرِيضٌ وَمَأسُورٌ، أَسِيرُ شَهْوَتِهِ وَهَوَاهُ.

فَكَيفَ يَسِيرُ إِلى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ: قَلْبٌ مَأسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟

وَمُشَاهَدَةُ الأَفْلامِ المَاجِنَةِ وَالدُّخُولُ عَلَى المَوَاقِعِ الإِبَاحِيَّةِ، تِلْكَ فِتْنَةٌ كُبْرَى، وَبَلِيَّةٌ عُظْمَى، وَسُمٌّ قَاتِلٌ، وَدَاءٌ عُضَالٌ، وَمَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ القَلْبِ. «وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالفَسَادِ مَا لا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ العِبَادِ»[1]، وَهُوَ مِنَ الأَمْرَاضِ التي تُفْسِدُ دِينَ صَاحِبِهَا، ثُمَّ قَدْ تُفْسِدُ عَقْلَهُ ثُمَّ جِسْمَهُ[2]، وَلَو سَلِمَ مِنْ فِعلِ الفَاحِشَةِ الكُبْرَى، فَدَوَامُ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهَا بِلا فِعْلِ الفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَراً عَلَيهِ، مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْباً ثُمَّ يَتُوبُ مِنهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ[3].

ذَلِكَ بِأَنَّ إِصْرَارَ القَلْبِ على مَحَبَّةِ مَا يَكرَهُهُ اللهُ،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).

نَقْصٌ في التَّوحِيدِ، وَهَوَ نَوعٌ مِنَ الشِّركِ الخَفِيِّ[1].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا البَلاءِ: إِعْرَاضُ القَلْبِ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالإِخْلاصِ لَهُ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ[2].

وَسُئِلَ بَعْضُ العُلَماءِ عَنْ عِشْقِ الصُّوَرِ؟ فَقَالَ: **قُلُوبٌ غَفَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، فَابْتَلاهَا بِعُبُودِيَّةِ غَيرِهِ**[3].

وَالشَّيطَانُ «دَائِماً يَتَرَقَّبُ غَفْلَةَ العَبْدِ، فَيَبْذُرُ في قَلْبِهِ بَذْرَ الأَمَانِي والشَّهَواتِ والخَيَالاتِ البَاطِلَةِ، فَيُثْمِرُ كُلَّ حَنْظَلٍ وَكُلَّ شَوكٍ وَكُلَّ بَلاءٍ، وَلا يَزَالُ يُمِدُّهُ بِسَقْيِهِ حتَّى يُغَطِّيَ القَلْبَ وَيُعْمِيَهُ»[4].

وَلَو «لَم يَكُنْ لِلْقَلبِ المُشْتَغِلِ بِمَحَبَّةِ غَيرِ اللهِ المُعْرِضِ عَنْ ذِكْرِهِ مِنَ العُقُوبَةِ، إِلَّا صَدَؤُهُ وَقَسْوَتُهُ

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٤).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٥).

وَتَعطِيلُهُ عَمَّا خُلِقَ لَهُ، لَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً»[1].

وَأَنْصَحُ مَنِ ابْتُلِيَ بِهَذَا البَلَاءِ بِخَمسَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الصَّبْرُ:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيراً وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ**»[2].

وَعَلَى المُبتَلى أَنْ يَصْبِرَ وَيَتَحَمَّلَ مَرَارَةَ الدَّوَاءِ، وَذَلِكَ أَصْعَبُ شيءٍ عَليهِ، وَلَيسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنْهُ. وَإِذَا تَلَمَّحَ حَلاوَةَ العَافِيَةِ، هَانَتْ عَليهِ مَرَارَةُ الصَّبرِ.

فَلَيسَ لِمَنْ قَدْ فُتِنَ بِمُشَاهَدَةِ تِلكَ الأَفْلامِ دَوَاءٌ مِثْلُ الصَّبرِ، فَإِنْ صَبرَ عَنْ مُشَاهَدَةِ مَا لا يُرْضِي اللهَ نَجا مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ سَقَطَ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا، فَدَامَتْ حَسَرَاتُهُ وَاشْتَدَّ أَلَمُهُ وَعَذَابُهُ. فَلا يُنْكِرُ قُرْبَ الهَلاكِ.

---

(١) روضة المحبين (ص١٨٢).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وَقَد قِيلَ: **الصَّبْرُ عَلَى غَضِّ البَصَرِ، أَيسَرُ مِنَ الصَّبرِ عَلَى أَلَمِ مَا بَعْدَهُ**[1].

فَكُلَّمَا شَاهَدَ فِيلْماً جَرَّهُ إِلى فِيلْم آخَرَ وَهَلُمَّ جَرًّا. فَمَثَلُهُ مَثَلُ عَطْشَانٍ شَرِبَ مِنَ البَحْرِ، فَازدَادَ عَطَشاً. وَقَدْ يَفْعَلُ الفَاحِشَةَ وَالعِيَاذُ بِاللهِ. وَقَدْ يَأتِيهِ الموتُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ، فَيَلْقَى اللهَ بِقَلْبٍ غَيرِ سَلِيمٍ. وَلا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

الثَّانِي: الدُّعَاءُ:

وَلْيُكْثِرِ «اللَّجَأَ وَالتَّضَرُّعَ إِلى مَنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَلْيَطْرَحْ نَفْسَهُ بَينَ يَدَيهِ، مُسْتَغِيثاً بِهِ، مُتَضَرِّعاً، مُتَذَلِّلاً، مُسْتَكِيناً، ضَعِيفاً، لا قُوَّةَ لَهُ وَلا قُدرَةَ وَلا حَولَ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَمَتَى وُفِّقَ لِذَلِكَ فَقَد قَرَعَ بَابَ التَّوفِيقِ.

وَلَعَلَّهُ مِنَ المُفِيدِ جِدّاً أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الأَدْعِيَةِ التَّالِيَةِ:

---

(١) الداء والدواء (ص١٧٩).

١ ـ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الإيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوفِ أَحَدِكُم كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُم»**[1].

يَخْلَقُ: أَي يَبْلَى.

١ ـ اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ قَلْباً سَليماً، وَلِسَاناً صَادِقاً[2].

٢ ـ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّه إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ[3].

٣ ـ اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ[4].

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٤)، وحسنه الألباني رحمه الله فِي «الصحيحة» (١٥٨٥).

(٢) رواه الطبراني فِي «الكبير» (٧١٣٥)، وجوَّد إسناده العلامة الألباني رحمه الله فِي «الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٣) رواه البخاري فِي الأدب المفرد (٦٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله فِي «صحيح الأدب المفرد» (٥٤١).

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤).

٤ ـ اللَّهُمَّ إِني أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا[(١)].

٥ ـ اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ[(٢)].

٦ ـ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي ـ يَعْنِي فَرْجَهُ ـ[(٣)].

٧ ـ اللَّهُمَّ اغفِر ذَنبِي، وَطَهِّرْ قَلْبِي، وَحَصِّن فَرجِي[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٧٧)، ومسلم فِي «٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء» [٤٩ ـ (٥٨٩)].

(٣) رواه الترمذي (٣٤٩٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٧٥).

(٤) يدل عليه دعاء النبي صَلَّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ للفتى الشاب، الذي أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي =

٨ ـ **يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**[(١)].

٩ ـ **يا وَلِيَّ الإسلامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنِي بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ**[(٢)].

الثَّالِثُ: الإِخلَاصُ:

وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ دَوَاءٌ أَنْفَعَ مِنَ الإِخْلَاصِ للهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

«فَاللهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ

= بالزنى... قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهمَّ اغفِر ذنبَهُ، وطهِّر قلبَهُ، وحصِّن فرجَهُ**» فلم يكن بعد ذلك، الفتى يلتفت إِلَى شيء. رواه أحمد (٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، وصححه الألباني فِي «الصحيحة» (٣٧٠).

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٤٤).

(٢) رواه الطبراني فِي «الأوسط» (٦٦١)، وحسنه الألباني فِي «الصحيحة» (١٨٢٣).

بِإِخْلَاصِهِ للهِ»[1].

فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا خَلَصَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ للهِ، لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ عِشْقُ الصُّوَرِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ قَلْبٍ فَارِغٍ، كَمَا قَالَ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى
فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَمَكَّنَا[2]

وَلِهَذَا تَجِدُ العَبْدَ إِذَا كَانَ مُخْلِصاً للهِ مُنِيباً إِلَيْهِ مُطْمَئِنّاً بِذِكْرِهِ، مُشْتَاقاً قَلْبُهُ إِلَى لِقَائِهِ، مُنْصَرِفاً عَنْ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَيهَا، وَلَا يُعَوِّلُ عَلَيهَا[3]. كَالمَشْغُولِ بِالجَوهَرِ إِذَا لاحَتْ لَهُ قُشُورُ البَصَلِ، بِخِلافِ مَا إِذَا عُدِمَ هَذِهِ الحَلاوةَ الإِيمَانِيَّةَ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَمِيلُ إلى شَيءٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٨).
(٢) الداء والدواء (ص٣٢٤ ـ ٣٢٥).
(٣) موارد الأمان (ص٤٣٣ ـ ٤٣٤).
(٤) شرح حديث: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»** (ص٣٣).

فَلَا تَزُولُ الفِتْنَةُ عَنِ القَلْبِ إِلَّا إِذَا كَانَ دِينُ الْعَبْدِ كُلُّهُ للهِ عزّ وجلّ، فَيَكُونُ حُبُّهُ للهِ وَلِمَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَبُغْضُهُ للهِ وَلِمَا يُبْغِضُهُ اللهُ[1].

الرَّابِعُ: الصَّوْمُ:

عَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ؛ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[2].

فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ «وَقَلَّ مَنْ أَدْمَنَ الصَّوْمَ، إِلَّا وَمَاتَتْ شَهْوَتُهُ، أَوْ ضَعُفَتْ جِدّاً»[3].

الخَامِسُ: عَدَمُ التَّعَرُّضِ لِلفِتْنَةِ:

إِنَّ العَبْدَ ضَعِيفٌ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ مَنْزِلَتُهُ لا يَأْمَنُ على

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٠١).
(٢) رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).
(٣) روضة المحبين (ص٢٣٠).

نَفْسِهِ الفِتْنَةَ، وَيَخْشَى أَنْ تَجْرِفَهُ رِيَاحُ الأَهْوَاءِ وَالفِتَنِ.
وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا بِأَنَّ مَثَلَ القَلْبِ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ.
فَهَلْ يَلِيقُ بِالعَاقِلِ أَن يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلْفِتَنِ؟!

فَيَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مَوَاطِنِ الْفِتَنِ، وَيَفِرَّ مِنْهَا فِرَارَهُ مِنَ الأَسَدِ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهَا.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ وَقَعَ مَوَاقِعَ الْفِتَنِ، وَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَنَّهُ سَيَتَخَلَّصُ، ثُمَّ لَا يَتَخَلَّصُ.

حَتَّى إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَرَ مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهُ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِي فِتْنَتِهِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ**»[1].

فَمَا اسْتُعِينَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الشَّرِّ، بِمِثْلِ البُعْدِ عَنْ أَسْبَابِهِ وَمَظَانِّهِ[2].

---

(١) رواه أبو داود (٤٣١٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٢٩).
(٢) عدة الصابرين (ص٨٦).

فَاحْذَرْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ مِنَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ، فَبَعِيدٌ أَنْ يَسْلَمَ مَنِ اقْتَرَبَ مِنَ الفِتْنَةِ.

وَكَمَا أَنَّ مَنِ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ أَصَابَهُ مِنْ حَرِّهَا وَوَهْجِهَا، كَذَلِكَ «الشَّهْوَةُ مِثْلُ النَّارِ: إِذا أَضْرَمَهَا صَاحِبُهَا، بَدأَتْ بِإِحْرَاقِهِ»(١). فَإِنَّ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ لِلْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الْحَطَبِ الَّذِي يُمِدُّ النَّارَ وَيُوْقِدُهَا، وَلِهَذَا: كُلَّمَا كَثُرَتِ الْخَطَايَا اشْتَدَّت نَارُ الشَّهْوَةِ فِي الْقَلْبِ»(٢). فَأَيُّ نَعِيمٍ لِمَنْ قَلْبُهُ يَغْلِي بِالْخَطَايَا وَالشَّهَوَاتِ؟ وَأَيُّ سُرُورٍ لِمَنْ يَلْتَهِبُ فُؤَادُهُ بِمَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُ اللهُ؟ وَأَيُّ حَيَاةٍ لِمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالزَّانِيَاتِ؟ وَأَيُّ عَاقِبَةٍ وَفَلَاحٍ لِمَنِ انْقَطَعَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّ الْبَرِيَّاتِ؟!

وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ، فَقَدْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ العَطَبِ، فَهُوَ إِلَى الهَلَاكِ أَدْنَى مِنْهُ إِلَى السَّلَامَةِ.

«وَيَحْتَاجُ الْمُسْلِمُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَخَافَ اللهَ، وَيَنْهَى

---

(١) فوائد الفوائد (ص٢٩٠).

(٢) انظر: موارد الأمان (ص١١٧).

النَّفْسَ عَنِ الهَوَى، وَنَفْسُ الْهَوَى والشَّهْوَةِ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ تَهْوَى وَهُوَ يَنْهَاهَا، كَانَ نَهْيُهُ عِبَادَةً للهِ، وَعَمَلاً صَالِحاً»[1].

عَنْ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»[2].

فَيُؤْمَرُ بِجِهَادِهَا كَمَا يُؤْمَرُ بِجِهَادِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعَاصِي وَيَدْعُو إِلَيْهَا، وَهُوَ إِلَى جِهَادِ نَفْسِهِ أَحْوَجُ، فَإِنَّ هَذَا فَرْضُ عَيْنٍ، وَذَاكَ فَرْضُ كِفَايَةٍ. وَالصَّبْرُ فِي هَذَا مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ هَذَا الجِهَادَ حَقِيقَةُ ذَلِكَ الجِهَادِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ الجِهَادِ[3].

وَإِنَّمَا يَعْتَبِرُ بِهَذَا الكَلام «مَنْ في قَلْبِهِ بَعْضُ حَيَاةٍ يَحُسُّ بِهَا، فَأَمَّا مَنْ مَاتَ قَلْبُهُ، وَعَظُمَتْ فِتْنَتُهُ؛ فَقَد سَدَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥).

(٢) قطعة من حديث: أخرجه أحمد (٦/ ٢١، ٢٢)، وابن حبان (٤٨٦٢)، والحاكم (٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦).

عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ النَّصِيحَةِ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]»[١].

وَفِي خِتَامِ هَذِهِ النَّصِيحَةِ، نَقُولُ لِمَنْ تَلَطَّخَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ: «لَا يَصْلُحُ لِقُربِ اللهِ إِلَّا طَاهِرٌ. فَإِنْ أَرَدْتَ قُرْبَهُ وَمُنَاجَاتَهُ الْيَوْمَ فَطَهِرْ ظَاهِرَكَ وبَاطِنَكَ لِتَصلُحَ لِذَلِكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ قُرْبَهُ وَمُناجَاتَهُ غَداً فَطَهِّرْ قَلْبَكَ مِنْ سِوَاهُ لِتَصْلُحَ لِمُجَاوَرَتِهِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]»[٢].

تُبْ إِلَى رَبِّكَ تَوبَةً نَصُوحاً مَا دُمْتَ فِي مُدَّةِ الإِمْكَانِ، وَاحْذَرْ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى مَا يُسْخِطُ المَوْلَى مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى العِصْيَانِ[٣].

---

(١) موارد الأمان (ص٣١٣).
(٢) انظر: اختيار الأولى (ص٦٧)، لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٧٦).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«... **وَيلٌ للمُصِرِّينَ الذينَ يُصِرُّونَ عَلَى ما فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمُونَ**»[1].

فَنسأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّومَ ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، العَافِيَةَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَبَلاءٍ. إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري فِي «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الألباني ﵀ فِي «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٩).



١ ـ مَا ضُرِبَ عَبدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ وَالبُعدِ عَنِ اللهِ[1].

٢ ـ خُلِقَتِ النَّارُ لإِذَابَةِ القُلُوبِ القَاسِيَةِ[2].

٣ ـ مَتَى أُقْحِطَتِ العَينُ مِنَ البُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ قَحْطَهَا مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ، وَأَبْعَدُ القُلُوبِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي[3].

٤ ـ قَسْوَةُ القَلْبِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ إِذا جَاوَزَت قَدْرَ الحَاجَةِ: الأَكلُ وَالنَّومُ وَالكَلامُ وَالمخَالَطَةُ[4].

---

(١) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).
(٢) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٠٠).
(٤) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).

٥ ـ لَيْسَ الاعتِبَارُ بِأَعْمَالِ البِرِّ بِالجَوَارِحِ، إِنَّمَا الاعتِبَارُ بِبِرِّ القُلُوبِ وَتَقْوَاهَا، وَتَطْهِيرِهَا عَنِ الآثَامِ. سَفَرُ الدُّنيَا يُقْطَعُ بِسَيْرِ الأَبْدَانِ، وَسَفَرُ الآخِرَةِ يُقْطَعُ بِسَيْرِ القُلُوبِ[1].

٦ ـ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَحَلَّى بِالمَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ وَانْتَحَلَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِهَا، بَل أَهْلُ المَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ: الَّذِينَ أَحْيَوْا قُلُوبَهُم بِقَتْلِ الهَوَى، وَأَمَّا مَنْ قَتَلَ قَلْبَهُ فَأَحْيَى الهَوَى؛ فَالمَعْرِفَةُ وَالحِكْمَةُ عَارِيَةٌ عَلَى لِسَانِهِ[2].

٧ ـ خَرَابُ القَلبِ؛ مِنَ الأَمْنِ وَالغَفْلَةِ، وَعِمَارَتُهُ؛ مِنَ الخَشيَةِ والذِّكْرِ[3].

٨ ـ القَلبُ يَمرَضُ كَمَا يَمْرَضُ البَدَنُ، وَشِفَاؤُهُ فِي التَّوبَةِ وَالحِمْيَةِ، وَيَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ المِرْآةُ، وَجَلاَؤُهُ بِالذِّكْرِ، وَيَعْرَى كَمَا يَعْرَى الجِسْمُ، وَزِينَتُهُ التَّقْوَى،

---

(١) لطائف المعارف (ص٤٤٣).
(٢) فوائد الفوائد (ص٢٦٣).
(٣) فوائد الفوائد (ص٢٦٣).

وَيَجُوعُ وَيَظْمَأُ كَمَا يَجُوعُ البَدَنُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ المَعرِفَةُ وَالمَحَبَّةُ، والتَّوَكُّلُ وَالإِنَابَةُ وَالخِدمَةُ[1].

٩ ـ إِضَاعَةُ القَلْبِ مِنْ إِيثَارِ الدُّنيَا عَلَى الآخِرةِ. وَإِضَاعَةُ الوَقْتِ مِنْ طُولِ الأَمَلِ. فَاجْتَمَعَ الفَسَادُ كُلُّهُ فِي اتِّبَاعِ الهَوَى وَطُولِ الأَمَلِ، وَالصَّلَاحُ كُلُّهُ فِي اتِّباعِ الهُدَى وَالاسْتِعْدَادِ لِلِّقَاءِ[2].

١٠ ـ العَجَبُ مِمَّنْ تَعْرِضُ لَهُ حَاجَةٌ فَيَصْرِفُ رَغبَتَهُ وَهِمَّتَهُ فِيهَا إِلَى اللهِ لِيَقْضِيَهَا لَهُ، وَلَا يَتَصَدَّى لِلسُّؤَالِ لِحَيَاةِ قَلْبِهِ مِنْ مَوْتِ الجَهْلِ وَالإِعْرَاضِ وَشِفَائِهِ مِنْ دَاءِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ إِذَا مَاتَ القَلْبُ لَمْ يَشْعُر بِمَعْصِيَتِهِ[3].

١١ ـ إذا حَمَّلْتَ عَلَى القَلْبِ هُمُومَ الدُّنيَا وَأَثْقَالَهَا وَتَهَاوَنْتَ بِأَوْرَادِهِ الَّتِي هيَ قُوَّتُهُ وَحَيَاتُهُ، كُنْتَ كَالمُسَافِرِ

(١) فوائد الفوائد (ص٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٢) فوائد الفوائد (ص٣٨٥).
(٣) فوائد الفوائد (ص٣٨٥).

الَّذِي يُحَمِّلُ دابَّتَهُ فَوقَ طَاقتِهَا وَلا يُوَفِّيهَا عَلَفَهَا، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَقِفُ بِهِ![1].

١٢ ـ القَلْبُ فِي سيرِهِ إِلَى اللهِ عزّ وجلّ بِمَنزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالمَحَبَّةُ رَأسُهُ وَالخَوفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالجَنَاحَانِ فَالطَّائرُ جيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى فُقِدَ الجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ كَاسِرٍ[2].

١٣ ـ مَا حُفِظَتْ حُدُودُ اللهِ وَمَحَارِمُهُ، وَوَصَلَ الوَاصِلُونَ إِلَيْهِ، بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَمَتَى خَلَا القَلْبُ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، فَسَدَ فَسَاداً لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَداً، وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيءٌ مِنْ هَذِهِ، ضَعُفَ إِيمَانُهُ بِحَسَبِهِ[3].

١٤ ـ طَهَارَةُ القَلْبِ بِالتَّوبَةِ، وَطَهَارَةُ البَدَنِ بِالمَاءِ[4].

---

(١) فوائد الفوائد (ص٤٤٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣).
(٤) موارد الأمان (ص١١٦).

١٥ ـ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَخَافُ مَوْتَ قَلْبِهِ، لَا مَوْتَ بَدَنِهِ، إِذْ أَكْثَرُ الخَلْقِ يَخَافُونَ مَوْتَ أَبْدَانِهِم، وَلَا يُبَالُونَ بِمَوْتِ قُلُوبِهِم[١].

١٦ ـ القَلْبُ الوَاسِعُ يَسِيرُ بِالخَلقِ إِلَى اللهِ مَا أَمْكَنَهُ، فَلَا يَهْرُبُ مِنْهُم وَلَا يَلْحَقُ بِالقِفَارِ[٢] وَالجِبَالِ وَالخَلَوَاتِ، بَلْ لَوْ نَزَلَ بِهِ مَنْ نَزَلَ سَارَ بِهِ إِلَى اللهِ، فَإِنْ لَمْ يَسِر مَعَهُ سَارَ هُوَ وَتَرَكَهُ[٣].

١٧ ـ المَحَبَّةُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ عُرُوقُهَا الذُّلُّ لِلمَحْبُوبِ، وَسَاقُهَا مَعْرِفَتُهُ، وَأَغْصَانُهَا خَشْيَتُهُ، وَوَرَقُهَا الحَيَاءُ مِنْهُ، وَثَمَرَتُهَا طَاعَتُهُ، وَمَادَّتُهَا الَّتِي تَسْقِيهَا ذِكْرُهُ، فَمَتَى خَلَا الحُبُّ عَنْ شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصاً[٤].

١٨ ـ إِذَا كَانَتِ القُلُوبُ مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّ مَنْ

---

(١) تهذيب المدارج (ص٩٤٦).
(٢) القفار: الصحاري.
(٣) روضة المحبين (ص٢٩٨).
(٤) روضة المحبين (ص٤١١).

أَحْسَنَ إِليهَا، وَكُلُّ إِحْسَانٍ وَصَلَ إِلَى العَبْدِ فَمِنَ اللهِ عزّ وجلّ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فَلَا أَلْأَمَ مِمَّنْ شَغَلَ قَلْبَهُ بِحُبِّ غَيْرِهِ دُونَهُ[١].

١٩ ـ مَتَى خَلَتِ الغَيرَةُ مِنَ القَلْبِ خَلَا مِنَ الدِّينِ، وَالغَيْرَةُ تُصَفِّي القَلْبَ وَتُخْرِجُ خَبَثَهُ، كَمَا يُخْرِجُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ[٢].

٢٠ ـ اللهُ سبحانه وتعالى يَغَارُ عَلَى قَلْبِ عَبْدِهِ أَنْ يَكُونَ مُعَطَّلاً مِنْ حُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهِ غَيْرُهُ. ويَغَارُ عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَتَعَطَّلَ مِنْ ذِكْرِهِ وَيَشْتَغِلَ بِذِكرِ غَيْرِهِ. وَيَغَارُ عَلَى جَوَارِحِهِ أَنْ تَتَعَطَّلَ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَشْتَغِلَ بِمَعْصِيَتِهِ. فَيقبُحُ بِالعَبْدِ أَنْ يَغَارَ مَوْلَاهُ الحَقُّ عَلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَهُوَ لَا يَغَارُ عَلَيْهَا[٣].

---

(١) روضة المحبين (ص٤١٩).
(٢) روضة المحبين (ص٣٠٢).
(٣) روضة المحبين (ص٣١٠).

٢١ ـ شَتَّانَ بَيْنَ أَقْوَامٍ مَوْتَى تَحْيَى القُلُوبُ بِذِكْرِهِم، وَبَينَ أَقْوَامٍ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ القُلُوبُ بِمُخَالَطَتِهِم[1].

٢١ ـ دَوَاءُ قَلْبِكَ خَمْسٌ عِنْدَ قَسْوَتِهِ
فَدُمْ عَلَيهَا تَفُزْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ

خَلَاءُ بَطْنٍ وَقُرْآنٌ تَدَبَّرُهُ
كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ

كَذَا قِيَامُكَ جُنْحَ اللَّيلِ أَوْسَطَهُ
وَأَن تُجَالِسَ أَهْلَ الخَيْرِ وَالخَبَرِ



---

(١) الرسالة التبوكية (ص٨٦).

الخَاتِمَةُ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي «أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ وَالضَّمَائِرِ، فَعَلِمَ مَا تَحتَوِي عَلَيهِ مِنْ سَيِّىءِ النِّيَّاتِ وَحُسْنِهَا وصفَاءِ السَّرَائِرِ؛ وَجَعَلَ إِرَادَاتِ القُلُوبِ تَدْعُو إِلَى ما يُشَاكِلُهَا مِنْ أَقْوَالِ اللِّسَانِ وَأَعْمَالِ الظَّوَاهِرِ»[1]، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: خَاطَبَنَا بِأَلْطَفِ الخِطَابِ وَأَحْلَاهُ، وَنَصَحَنَا بِأَحْسَنِ النَّصَائِحِ، وَوَصَّانَا بِأَكْمَلِ الوَصَايَا، وَأَمَرَنَا بِأَشْرَفِ الخِصَالِ، وَنَهَانَا عَنْ أَقْبَحِ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

«إِنَّ العِنَايَةَ بِإِصْلَاحِ القُلُوبِ مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ، وَأَوْجَبِ الوَاجِبَاتِ، وَأَجَلِّ القُرُبَاتِ»[2]، وَهِيَ تَمْرَضُ

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٠٣).

(٢) الذخيرة فِي إصلاح السريرة (ص١٣).

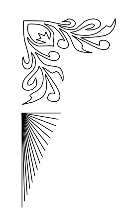
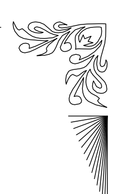
أَعْظَمَ مِمَّا تَمْرَضُ الأَبْدَانُ، فَاجْتَهِدُوا فِي دَوَائِهَا وَتَزْكِيَتِهَا، فَإِنَّها مَوْضِعُ نَظَرِ المَنَّانِ؛ فَكَيْفَ تُهْمِلُونَ السَّعْيَ لأَدْوِيَةِ أَمْرَاضِ قُلُوبِكُم، وَأَنْتُم لِطَبِيبِ أَمْرَاضِ الأَبْدَانِ تَبْذُلُونَ نَفَائِسَ أَمْوَالِكُم، وَعَافِيَةُ قُلُوبِكُم وَسَلامَتُهَا تُثْمِرُ الفَوَائِدَ الدِّينِيَّةَ وَالأُخرَوِيَّةَ. وَبِهَا يَحْصُلُ الفَوْزُ وَالسَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ؟[1] فَمَنْ أَصْلَحَ بَاطِنَهُ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ الأَحْوَالَ، وَسَدَّدَهُ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ[2]؛ وَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيرِ مَطْلَباً، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَباً. وَجَاءَتْهُ العَافِيَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

«فَنَسْأَلُ المَوْلَى الَّذِي ابْتَدَأَ بِالإِحْسَانِ وَخَتَمَ بِالإِحْسَانِ، وَعَلِمَ حَالَةَ الإِنْسَانِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النُّقْصَانِ: أَنْ يَتَوَلَّانَا بِلُطْفِهِ، وَيَمُنَّ عَلَيْنَا»[3] بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ طَاهِرَةٍ خَاشِعَةٍ، لَيِّنَةٍ رَقِيقَةٍ تَقِيَّةٍ نَقِيَّةٍ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ.

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٦٩).
(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ١١٦).
(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ٤٠٥).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
❊ المقدمة	٥
أُصُولٌ نَفِيسةٌ فِي إِصلاحِ القُلُوبِ	٩
الأَصْلُ الأَوَّلُ: الْقَلْبُ مَوْضِعُ نَظَرِ اللهِ تَعَالَى	٩
الأَصْلُ الثَّانِي: صَلَاحُ الجَوَارِحِ بِصَلَاحِ القَلبِ	١١
الأَصْلُ الثَالِثُ: القَلْبُ كَثِيرُ التَّقَلُّبِ	١٤
الأَصْلُ الرَّابِعُ: القَلْبُ عُرْضَةٌ لِلفِتَنِ	١٦
الأَصْلُ الخَامِسُ: الأَعْمَالُ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ	٢١
الأَصْلُ السَّادِسُ: عُبُودِيَّةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الجَوَارِحِ	٢٤
الأَصْلُ السَّابِعُ: القَلْبُ هَدَفٌ للشيَّطانِ	٢٦
الأَصْلُ الثَامِنُ: أمراضُ القُلُوبِ خَفِيَّةٌ	٢٦

الموضوع	الصفحة
الأَصْلُ التَّاسِعُ: إِهْمَالُ أَعْمَالِ القُلُوبِ يُؤَدِّي إِلَى الهَلَاكِ	٢٨
عَلَامَاتُ القَلْبِ السَّلِيمِ	٣٧
عِلَاجُ القُلُوبِ	٥٢
أَوَّلاً: قِرَاءَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالتَّدَبُّرِ	٥٣
ثَانِياً: ذِكْرُ اللهِ	٥٤
ثَالِثاً: العِلْمُ النَّافِعُ	٥٩
رَابِعاً: أَكْلُ الحَلالِ وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ	٦١
خَامِساً: مُطَالَعَةُ القَلبِ للأسماءِ الحُسنَى وَالصِّفَاتِ العُلَى	٦٢
صُوَرٌ مُشْرِقَةٌ لِأَصْحَابِ القُلُوبِ السَّلِيمَةِ	٦٥
نصائحُ على الطريقِ	٧٣
١ ـ عَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ	٧٣
٢ ـ لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ	٧٥
٣ ـ لِيَكُنْ دُعَاؤُكَ بِحُضُورِ قَلْبٍ	٧٥
٤ ـ أَطْعِمِ المِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ	٧٦
٥ ـ إِذَا أَذْنَبتَ ذَنباً فَأَحْدِثْ تَوبَةً	٧٦
٦ ـ أَكْثِرْ مِنَ الاسْتِغْفَارِ	٧٧

الموضوع	الصفحة

٧ ـ عَلَيكَ بِزِيَارَةِ القُبُورِ ٧٨
٨ ـ أَكْثِرْ مِنَ الأَعْمَالِ الخَفِيَّةِ ٧٨
أ ـ البُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ٧٩
ب ـ الدُّعَاءُ بِظَهْرِ الغَيبِ ٨١
ج ـ الإِكْثَارُ مِنَ النَّوَافِلِ في البَيتِ ٨٢
نَصِيحَةٌ لِمُشَاهِدِي الأَفْلَامِ المَاجِنَةِ ٨٣
عِبَرٌ وَعِظَاتٌ ٩٩
* **الخَاتِمَةُ** ١٠٦
* **فهرس الموضوعات** ١٠٩

مِنْ كُنُوزِ السُّنَّةِ

عَنْ أَبِي عِنَبَةَ الخَوْلَانِيِّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**إِنّ للهِ آنيةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأحبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**».

هَذَا مَثَلٌ حسَنٌ. شَبَّهَ القَلْبَ بِالإِنَاءِ، لأَنَّهُ إِنَاءٌ لِلخَيْرِ وَالشَّرِّ. فَقُلُوبُ الأَبْرَارِ تَغْلِي بِالبِرِّ، وَقُلُوبُ الفُجَّارِ تَغْلِي بِالفُجُورِ. وَفِي مِثْلِ هَذَا قِيلَ فِي المَثَلِ: وَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَنضَحُ.

وَالقَلْبُ اللَّيِّنُ الرَّقِيقُ أَحَبُّ القُلُوبِ إِلَى اللهِ وَأَكْثَرُهَا خَيْراً، فَبِلِينِهِ يَقْبَلُ الحَقَّ، وَبِرِقَّتِهِ يَرْحَمُ الخَلْقَ.

مَا أعظَمَ سعادَتَكَ إِن كانَ قَلبُكَ لَيِّناً رقيقاً.